AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

الغزالي
٢٠٨٤
89278
Sh542hsA
Egypt. Cent. Dept. 1930

الحصاد الأول

إحدى وثلاثون قصة عراقية

وضع

انور شاؤل

١٩٣٠

38555

— ثمنه ربية واحدة —

كافة الحقوق محفوظة للمؤلف

طبع بمطبعة الجمعية الخيرية $\frac{٣٢}{١١٥}$ تحت التكية : بغداد

١ - ٦٠٠ - ١٥ - ١ - ١٩٣٠

الاهداء

الى نصفي المجهول !
الى التي ستشاطرني الحياة غداً ،
المرأة التي لم يقع نظري وقلبي عليها بعد !

انور

حصادي الاول

هذا هو حصادي الاول احدى وثلاثون قصة عراقية ! ابطالها عراقيون، حوادثها عراقية ، اما كنها في هذه البقعة الصغير ذكرها بين بقع المعمور الكبير أملها في المستقبل ، هذه البقعة التي يسمونها « العراق »

هل ستعجبك الثلاثون قصة وقصة هذه ايها القاريء فتقول لله دره ان « الربية » التي دفعتها ثمناً للكتاب لم تذهب هدراً !

ام ستقلب شفتك السفلى استخفافاً بهذا الحصاد ، آسفاً على تلك الربية التي اضعتها على غير هدىً ؟

ذلك ما لا استطيع تكهنه ! ومهما يكن من استحسانك حصادي او استهجانك اياه ايها القاريء العزيز [العزيز طبعاً اذا اقتنيت نسخة] فلا يهمني الامر كثيراً بقدر ما يهمني انك دفعت ربية لمحمود افندي حلمي صاحب المكتبة العصرية او غيره من الكتبيين ثمناً لاحدى نسخ الحصاد الاول بما فيه من سنابل وهشيم واشواك !!

***

ان حصادي الاول هذا لم يخل من متاعب وعقبات ، لاني لست سوى احد القصصيين العراقيين الذين يحاولون خلق القصة العراقية من العدم ، لست سوى « كشاف » امهد الطريق لهذا الضرب من الادب اليانع الذي اصبح له من سيطرته في عالم النشر مقام سام وفضل لا ينكر .

وبديهي ان الاقي بعض الصعوبة في انتقاء الحوادث لقصصي ، اذ ليس مجهولاً لدينا ان مجتمعنا ما زال ضمن حدود ضيقة ، وان الحرية الفكرية ما زالت في افق أعتم وان الجمهور لم يتعود استماع قارص اللوم ومر الانتقاد يفرغه الكتاب القصصيون في صلب قصصهم ، ومع هذا وذاك فان التجاريب القصصية التي قمت بها ما هي الا خطوة اولى في هذا السبيل .

ولئن ساغ لي ان ابوّب قصص الحصاد الاول فان بالامكان تقسيمها الى :

١ — القصص الاجتماعية مثال مشاهد ليلة (ص ٣٨) وصفقة خاسرة (ص ٤٦) ومذكرات ضائعة . . (ص٦٦) وتبكي . . ! (ص١١١) ووخز الضمير (ص ١٦٠) وغيرها

٢ — القصص السياسية مثال كمال والنيابة (ص ٩١) وأنيابة ام شحاذة ؟ (ص ٩٦) وغيرهما

٣ — القصص الادبية مثال لكي تكون عظيماً (ص ٨٥) وآمال ممزقة (ص ١٤٧) وغيرهما

٤ — القصص الغرامية مثال بنفسجة (ص ٩) والزهاوي وراحيل اليهودية (ص ٦٠) والحب المبتور (ص ١١٦) وقلب فارغ (ص ١٥٣)

٥ — القصص الخيالية مثال بغداد بعد الطوفان (ص ٧٠) والامبراطور انور (ص١٦٣)

وليس هذا التقسيم الا تقسيماً نسبياً اذ ان اغلب هذه الالوان القصصية يختلط بعضها ببعض فيكوّن الصورة القصصية المطلوبة ومن الصعب اعتبار هذا التقسيم تقريراً جازماً

هذا وارى ان هناك دعوى كثيراً ما يتبجح بها بعض المتأدبين مفادها ان الجو العراقي لا يصلح لتكوين القصة ، اذ ليس عندنا ما يسهل ملتقيات الحب وتكثير حوادثه التي يجب ان تكون محوراً لدوران القصة العراقية . انني ازاء هذه الدعوى لا يسعني ، مع اقراري بقحول التربة الغرامية ، الا ان اعلن خطلها و بعدها عن الصواب اذ ان القصة لا تقوم على القبلات الحارة يتبادلها العشيقان ، او على لواعج الهوى يبثها الحبيبان فحسب ، انما تستمد عناصرها من المجتمع بما فيه من عادات ، تقاليد ، مباديء ، اخلاق وآداب وبما فيه من نقص او انحطاط او ارتباك او غير ذلك مما يستلفت نظر القصصي و يستدعيه للاصلاح .

و بعد فلا ادري لماذا لا نعترف بان الحب عندنا، وان لم يظهر بمظهره الوهاج ، مبثوثة حبائله . وان جمراته ، وان غطاها الرماد ، متضرمة كامنة . فهذه بنفسجة (اقرأ ص : ٩) ما هي الا فتاة يعرف حكايتها الواقعة كثيرون رغم تحريفنا اسمها للضرورة القصصية ، وحسب القراء ان يعلموا ان بنفسجة لدى اطلاعها على قصتها مكتوبة صفقت لي استحساناً . وتلك هي « ص » بطلة قصة ضياع الاثنتين ومثلها بطلة الحب المبتور وفضلاً عن ذلك الايرى القاري في قصة «ابنة الراعي» صورة سامية للحب الطاهر ؟

وعلى كل فلا يحق لي ان اذهب بردي على هذه الدعوى الى ابعد من هذا خشية الافراط واني ارى ان للقصة العراقية مستقبلاً باهراً يتوقف على ما يلي :

اولاً : انكشاف المجتمع العراقي انكشافاً يقرب بين العائلات والافراد — اناثاً وذكوراً — ويلطف من جفاف الحياة الاجتماعية الراهنة

ثانياً : تقدم العراقيين نحو الوحدة الفعلية (لا الاسمية) بحيث تتقارب الامزجة وتتحد العوائد والاخلاق حتى لا يرى القصصي صعوبة في انتقاء حادثة قصته ليكون لها صدى في جميع النفوس

ثالثاً : تقدم وسائل الطبع والنشر وانتعاش الصحافة العراقية .

وبديهي ان هناك شروطاً اخرى ،اضرب صفحاً عن ذكرها، يجب ان تتوفر لتحرز القصة العراقية مقاماً مهماً في الادب العالمي

بغداد في ١٥ يناير ١٩٣٠

انور شاؤل

فهرست

الصفحة		الصفحة	
٩	بنفسجة	٩١	كمال والنيابة
١٤	عاكف بك	٩٦	أنيابة ام شحاذة ؟
٢٠	الدرويش	١٠٢	المجنونة
٢٦	اللقيط	١٠٦	سأكون كناساً
٣٣	ضياع الاثنتين	١١١	تبكي .. !
٣٨	مشاهد ليلة	١١٦	الحب المبتور
٤٣	المقامر	١٢٢	ابنة الراعي
٤٦	صفقة خاسرة	١٢٧	المسلولة
٥١	هذيان زوجة	١٣٣	العرّافة
٥٥	الزهاوي يقاوم الاستبداد	١٣٩	طفلتان
٦٠	الزهاوي وراحيل اليهودية	١٤٣	ج ....
٦٦	مذكرات ضائعة	١٤٧	آمال ممزقة
٧٠	بغداد بعد الطوفان	١٥٣	قلب فارغ
٧٦	سُكر فجنون	١٦٠	وخز الضمير
٨٠	نفنوف العيد	١٦٣	الامبراطور انور
٨٥	لكي تكون عظيماً		

بنفسجة

لئن حق لنا ان نقول ان الله يطبع خلقه على صورته الجميلة فان «بنفسجة» تلك الفتاة الجذابة الفتانة صورة من الصور العلوية التي تمنحها السماء لبني الارض قرةً للعيون ونزهةً للارواح

هي فتاة في التاسعة عشرة من عمرها لطفت خلقةً وعذبت اخلاقاً ، يزينها تعليم مدرسي في مبادىء العلوم والآداب مما جعل أنظار الشباب تحوم حول جمالها النادر ، على اثر تركها المدرسة ، حوم النحل حوالي الازهار الشذية

ولقد تحدث الناس عن جرأتها الادبية اذ ابصروها تسير في الطريق سافرة الوجه بعد ان كانت محجبة واخذوا يترقبون الفرص لايقاع الشبهات بها ولكنهم حاولوا عبثاً لان «بنفسجة» ذات خلق رصين

ومرت الايام فالشهور واذا « بينفسجة » قد فتحت قلبها لتنير زواياه أشعة الحب الوهاجة وفي زمن قصير اصبحت محبة محبوبة

***

الساعة الحادية عربية مساء وافراد العائلة كلهم مجتمعون في قاعة الاستقبال الا بنفسجة فقد انفردت في غرفتها بادية الانزعاج تخطر ذهابا وايابا بخطوات غير موزونة واذ تأكدت من ان ليس هناك من يراقبها أخرجت من جيبها رسالة فضتها بسرعة وقرأت :

« بنفسجتي العاطرة »

« أصحيح هذا النبأ المزعج الذي وقع علي كالصاعقة . لئن صح ما يقولون فانا اذن من اشقى خلق الله ! ما احلى تلك الساعة الاولى التي وقع فيها نظري عليك وما امرها . اجل ما امرها . ما امرها اليوم ! انهم مصممون على اختطاف الكأس التي آلينا ألا نشربها الا سوية »

« لقد كثرت الاشاعات القائلة ان اهلك يرومون تزويجك ذلك الرجل المثري رغم امتناعك فلئن تم ذلك فكم سيكون شقائي عظيماً . ! »

وهنا اخذ قلب الفتاة يسرع في خفقانه

« ابعث لك هذه الرسالة الوجيزة الدامعة مذكراً اياك بذلك القلب الذي طالما سمعت ضرباته بالقرب منك »

« محبك جميل »

فرغت من تلاوة الرسالة فقبلتها ودستها في جيبها :

— هيهات ان يتسنى لهم نيل المراد هيهات . . . عجبا هل انا سلعة من سلع السوق اباع واشرى حسب رغبات الراغبين . . ؟ سأريهم ما هو العزم الصادق

قالت هذا محدثة نفسها ثم توجهت بخطوات مسترقة الى الغرفة المحاذية لقاعة الاستقبال حيث مجمع العائلة وما لبثت ان أنصتت من وراء الجدار فسمعت الحديث التالي يدور بين ذويها :

الام : وهل عشيقها هذا المدعو جميل من الموظفين : وكم في حوزته من المال ؟

الشقيق : موظف من الدرجة الاولى ولا اخاله يملك اكثر من عشرة آلاف ريبة

الام : عشرة آلاف ريبة انها لاشيء بالنسبة للثروة التي يملكها صاحبنا

الشقيق : ولكنها تحبه يا اماه وهو ايضاً ...

الجدة : اف . ما هذا الكلام الفاسد . . نحن ماذا يهمنا الحب ... فلوس ... فلوس قبل كل شيء .. تحبه .. ها ها .. هل انقلبت بغداد « لنتن » او « بهريس »

الشقيق : لسنا في لندن ولا باريس . ولكن الا ينبغي ان نراعي عواطف الفتاة ؟

الاب : ارى انكم شططتم في الحديث فاعلموا انني انا وحدي أبت في مصير بنفسجة

فتململت البنت في مكانها وقالت : الويل لنا جميعاً اذا كان هذا المصير أسود . وارهفت اذنها فسمت :

الشقيق : يقال ان صاحبكم الغني يناهز الاربعين من سنيه

الام : انك جاهل يا بني . اربعون أو اكثر ماذا تهم . ما دام الرجل صاحب اموال طائلة .

الاب : صدقت . صدقت وعلى كل حال فالخطبة يجب ان تتم عصر الغد .

وهنا بلغ تأثر الفتاة منتهاه فصاحت على غير هدى منها قائلة :

عصر الغد ! أجل عصر الغد سنرى لمن ستكون المعركة !

كان الغد فقامت الحركة في الدار مؤذنة بدنو الخطبة وقد بلغت الام ابنتها ارادة والدها داعيةً اياها للتأهب فهزت الفتاة رأسها ساكتةً واجمة ومضت الى غرفتها .

وعم الخبر أهل الدار ان بنفسجة اذعنت بعد الامتناع فتضاعفت همم الخدمة في تهيئة ما يجب تهيئته لاداء مراسم الخطبة

وفي الساعة التاسعة عصراً وافى (ك...) يحفه عدد من اصدقائه فرحب بهم الاهل وقدمت اليهم اطباق الحلوى ولم يطل مكوثهم حتى قدم الممثل الروحاني للقيام بعقد الخطبة

ازفت الساعة فأين الفتاة المخطوبة ؟

انها في غرفتها المغلقة الباب جالسة تطالع صحيفة « الحاصد » غير آبهة للرائح أو الغادي

— بنفسجة انهم يدعونك فهيا

فلم تجب نداء الخادمة

— ماذا تفعلين الآن . ليس الوقت يا بنيتي وقت جرائد

فلم تجب

وبعد دقائق كان الاب والام والجدة وغيرهم من الاهل يحدثون الفتاة من نافذة الغرفة دون ان يحظوا منها بجواب

وكانت الفتاة اذ ذاك تتظاهر ، قدر استطاعتها ، بهدوء البال ، الامر الذي كان يثير سخط ذويها . وظلت لا تنبس بكلمة الى ان قال الاب :

— اننا سنكسر الباب ... اسمعت ؟

— قد يمكنك ايها الاب ان تكسر باب الغرفة ولكنك لا تتوصل الى كسر باب القلب . فافعل ما تشاء فاني لا افتح

— افتحي الباب عاجلاً فالخطيب ينتظر هناك مع اصحابه . افتحي فقد فضحتنا

— ليرجع حضرة المحترم من حيث اتى فانا لا اريد هذه الخطبة ليرجع !

وكثر اللغط في الدار فمن مهدد ومن مستعطف ومن ناصحة ولكن كل ذلك ما كان ليجدي نفعاً او يحرك ساكن البنت وبعد ساعة غادر (ك ...) دار الفتاة خجلا مطرق الرأس يترنح في سيره كشارب خمراً معتقة

وقبل شهر ونصف وصلتني الدعوة التالية :

ان عائلتي (ر ... س) تتشرف بدعوتكم لحضور حفلة زفاف ولديها جميل وبنفسجة المقامة الساعة التاسعة عربية من يوم الخميس الموافق ١٥ كانون الاول ... في الدار المرقمة ...

وهكذا انتصر الحب ... !

عاكف بك

— من حوادث الحرب العامة —

مهداة من المؤلف الى الاستاذ الشيخ محمد مهدي البصير نابغة الحلة

وشاعرها القائل : قد رأى الشعب نضالي ودرى وقع يراعي
انا لو هددت بالسيف لجردت لساني !

للنفس البشرية ذكريات يضمها الفكر في طياته محافظاً عليها امداً طويلاً . ومن هذه الذكريات ما يزيل عن الفؤاد اكتئابه ويحمل الى الروح انتعاشاً منبعثاً من سعادة تلاشت في تضاعيف الماضي فيشرق الوجه بعد عبوس وتتطلع العين الى رؤية اللامنظور من مشاهد الحياة

ومن هذه الذكريات ما يكون اشبه شيء بريح سموم تهب على الذاكرة فتذرو رمادها وتذكي لهيب ما اختفى تحت ذلك الرماد من جمرات محرقة اضرمتها مصائب الزمن على غير ارادة المرء واذ ذاك تبدو للعين اشباح الماضي المخيف بكل ما يجسمها من بشاعة ، هول وبؤس !

***

كثيرة هي حوادث الحرب العامة وكثيرة مصائبها وذكرياتها . انما امضها وقعاً على نفسي واشدها ايلاماً تلك النقمة الرهيبة التي صبها عاكف بك على الحلة الفيحاء !

اظنني اتذكر ذلك اليوم الاغبر الذي قدم فيه القائد التركي بلدنا (١) تحف به سراة جنوده ووحدات مدفعيته يوم ١٨ محرم عام ١٣٣٥ هـ. وكان عاكف بك قد قمع الفتنة الخارجية بالنار والحديد وجاء الحلة ليجهز على البقية الباقية منها فعم الرعب البلدة من اقصاها الى اقصاها وجزعت النفوس اي جزع شديد !

كنا نتطلع من نافذة الدار الى صفوف الجند المخترقة شوارع البلد يدفعها الغيظ ويسكرها النصر وذكرى الانتقام فقلت لوالدي الذي كان الى جانبي :

— او تظن يا ابي ان هؤلا الجنود المتطاير من عيونهم شرر الانتقام يلطفون بسكان البلدة الآمنين ؟

فاجابني والدي :

لااظن ذلك يا بني فالقوة لا ترأف بالضعف وان غداً لناظره قريب !

وبعد سويعات معدودة طرق اسماعنا ازيز في الفضاء فامتلكتنا الدهشة واستولى علينا ذهول .. انها طيارة تحلق في سماء الحلة فيشاهدها الاهلون للمرة الاولى في احرج المواقف

وصاح المنادي مساء ان على اهالي الحلة قاطبة ان يتركوا بيوتهم ويتوجهوا خارج البلدة عند شروق شمس اليوم التالي ومن يخالف الامر فهو يقطع حبل حياته بيده

---

(١) : الحلة مسقط رأس المؤلف

وكان اليوم التالي ، بعد ليل لم ينطبق فيه جفن، فغادرنا البلد شيوخنا وشبابنا ، عجائزنا واطفالنا . انه ليوم عصيب رأينا فيه ، ونحن على سهل منبسط في ضاحية البلدة ، فوهات المدافع مصوبة نحو الشعب تنذر بالويل والثبور فدب اليأس في نفوس الرجال وعلا صعيق النساء واذ جنحت الشمس للمغيب سمح لنا بالرجوع الى البلدة على الا نترك دورنا الا بامر القائد . وهكذا كان

لم يستقر بنا المقام في بيوتنا الا واخذت الطيارة ترمي قنابلها على قلب البلدة فتدمرها تدميراً وسرعان ما صدر امر المحكمة العرفية التي يرأسها عاكف بك بمصادرة اموال قسم كبير من الاهلين الذين وثقت من اشتراكهم في العصيان بوجه القوات العثمانية او اعتقدت انهم حاولوا ذلك

وظل شبح الموت يرفرف بجناحيه الاسودين على الحلة فلم ندر ماذا بقي من بلدتنا العزيزة بعد ان امطرها اتباع عاكف بك وابلاً من القنابل وبعد ان لعبت في بناياتها الفؤوس !

***

وكان صباح ٢٦ من الشهر المذكور فغادرت البيت صحبة ابي لنرى المشنوقين على ساحل الفرات اولئك الذين انبأنا المنادي عن شنقهم وحضنا على الخروج لرؤيتهم او « التفرج عليهم » كما قال !

واذ بلغنا الساحة الكائنة بين السراي والنهر ابصرنا اجساماً بيضاء يتقاذفها الهواء يميناً ويساراً وكان والدي ممسكا بيدي فشعر بهزة سرت في مفاصلي فقال :

— هيا نرجع يا انور

فقلت له بعزم اكيد :

— كلا يا ابتي بل لنتقدم فانا جريء

ولم يكن عمري اذ ذاك ليتجاوز الثالثة عشرة فاصر ابي على الرجوع واصررت على التقدم اصراراً اضطره الى الاذعان فاقتربنا

ثلاث عشرة مشنقة تحمل ثلاثة عشر مشنوقاً كلهم من وجهاء البلدة وسراتها ! يالله منظراً رهيباً يهيج لواعج النفس اهاجة الريح للنار المستعرة... وفيما كنت اطالع بقلب هالع ما كتب على الاوراق الملصقة على صدور المشنوقين اذ لفتت نظري سيدة مسترسلة الشعر مصفرة الخدين، دنت الى احد المشنوقين فانهالت تقبله تارة وتعفر وجهها من تحت اقدامه طوراً ثم تلطم صدرها بعنف وهي خلال كل ذلك تصيح :

يا « امين » انت عيني !! يا « امين » انت روحي !!

انه ليعز على النفس الشريفة ، في مثل هذا الموقف ، ان ترى البشرية تتمرغ في حمأة التعاسة باكية ، ناحبة ، ناقمة !

واي منظر اشد هولاً من ان ترى الام جثة ابنها معلقة ،هامدة ، شاحبة ، يميل بها الهواء انى اراد وشفتيه اللتين رضعتا من ثدييها زمناً قد اصبحتا زرقاوين بعد ان قرصتهما اصابع الموت القاسية!

انقطعت المرأة عن النواح فجأة وسارعت الى النهر مريدة القاء نفسها فيه فما كان مني الا ان ركضت صارخاً : المعونة ! المعونة !

وسريعاً أخذت بتلابيبها وما برحنا نتجاذب حتى توافد جمهور من الناس كان بينهم من حملها الى دار قريبة

وفي اليوم الثاني عرضت الساحة مشهداً لا يقل هولا عن المشهد السابق وهكذا شنق عاكف بك خلال اسبوع واحد مائة وستة وعشرين وجيهاً من وجهاء الحلة ازهقت ارواحهم على اعواد المشانق وهم لم يأتوا أي عمل يستحق هذه النقمة المنكرة !

***

واطبق الليل !

فقال عاكف بك لاحد ضباطه :

— وهل هي تفهم التركية ؟

— كلا انها لا تفهم التركية لذلك لم اجد مناصاً من استخدام احد المترجمين الامناء

— وماذا قلت لها ؟

— قلت لها ان قائدنا المبجل « عاكف بك » قد سمع بجمالك الفتان فمال اليك وهو مستعد لان يقبل زيارتك على الرحب والسعة

ولم أشأ يا مولاي ان اخبرها بمصرع زوجها في بدء الحديث لذلك موهت عليها الحقيقة قائلاً ان زوجها موقوف في سجن السراي وان بامكانها ان تنقذه من الخطر المداهم . فما كانت تبدي الا ازدياداً في النفور فلم أر بداً من تهديدها فاطلعتها على جلية الخبر مؤكداً لها ان حياتها ستجابه

اشد الاخطار اذا هي لم تذعن

– والنتيجة ؟

– النتيجة انها ما زالت على ما كانت عليه من الصدود . لعمري انني لم اشاهد طيلة حياتي مثل هذه العزيمة ومثل هذا الاصرار

– اذن فسحقاً لها .. بلغ « زهرة » للمرة الاخيرة انها اذا لم ترضخ لمرامي صاغرة فستساق مع النساء المزمع سوقهن الى الانضول

– امرك يا مولاي

***

بعد اسبوع سيق الى مجاهل الانضول عدد عديد من نساء الحلة المحصنات البريئات ، بينهن امرأة جذابة تفتن الناظرين رغم الآلام المرتسمة اثارها على وجنتيها وهذه المرأة تسمى «زهرة»

لقد مثل الطغاة على مسرح البشرية دوراً شنيعاً فسيقت النساء بالسياط اللاهبة وازهقت ارواح الرجال على اعواد المشانق !

ألا ويل للضعيف من القوة الغاشمة !

وويل للقوة الغاشمة من كيد الضعيف !!

الدرويش

— المال مال الله والسخي حبيب الله

قال الدرويش ذلك بلهجة غنائية حزينة وهو يطرق باب دار شامخة البنيان مهيبة المنظر يدل خارجها على وجاهة ساكنيها وكان الباب قد فتح قليلا فمد الدرويش رأسه متطلعا الى الداخل كأنه السارق يتلصص في غفلة الرقباء .

ولم يجد صاحبنا احداً امامه فتريث قليلا ثم اعاد كلامه بصوت عال ونبرة رخيمة قائلا :

— المال مال الله والسخي حبيب الله — اين من يلبي نداء الضمير ؟ اين من يساعد الفقير ؟

وهنا اخرج من تحت عباءته دفاً اخذ ينقر عليه نقراً بديعا مغنيا غناء ابدع وما هي لحظة حتى احاط بالدرويش عدد من الصبية يتفرجون عليه بشوق عظيم اذ قلما صادفوا رجلا في شكل مثل شكله غريب .

لحية طويلة سوداء ، شعر مسترسل مبعثر على الكتفين ، عينان سوداوان براقتان ، بشرة سمراء صافية تلك هي بعض الصفات التي امتاز بها هذا الدرويش الفقير .

واخذ يزداد عدد المتجمهرين حوله غير انه ما كان يلتفت اليهم انما

كان ينتظر من يكلمه من ساكني هذه الدار العامرة .

وظهرت له من داخل الدار خادمة صغيرة نقدته قطعة من النقود فتطلع اليها وقال :

— شربة ماء يا بنيتي فانا تعبان .

فانثنت البنت داخلة الى الدار وما لبثت ان عادت تقول :

— ادخل يا درويش . ادخل واسترح قليلا في تلك الغرفة فان استاذتي امرت بذلك . ادخل فسنقدم لك طعاماً وماء .

فدخل الدرويش متباطئا وهو يتمتم :

— لا يضيع الله اجر المحسنين . لا يضيع اجر المحسنين !

بعد دقائق معدودة كان افراد العائلة الساكنة هذا البيت يحيطون بالدرويش وكلهم معجب بفصاحة لسانه وسرعة خاطره وحدة انظاره .

وكان بين المجتمعين غادة هيفاء ذات جمال فتان ما انفكت تحادث الدرويش بجرأة ، مستطلعة اخباره بشوق :

— لا اظنك يا هذا الا قادماً الى بغداد من «الاهواز» .

— لست قادما من الاهواز ولست من ابنائها . انني من الشمال . من شمال الموصل ، اسيح في بلاد الله الواسعة تعرفاً بعباده الصالحين امثالكم . فضحك المجتمعون اما الدرويش فاردف مخاطبا فتى في الثانية والعشرين :

— اظنك شقيقها

قال ذلك مشيراً الى الحسناء فاجابه الفتى مداعباً :

— لست شقيقها انما هي شقيقتي...

فقهقه الحاضرون وابتسم الدرويش ابتسامة رزينة قصيرة وقال موجهاً خطابه الى الفتاة :

— ايتها الغادة الجميلة الفتانة . يا قطرة الطل على شجرة العائلة . يا حمامة الروض المزهر ان سعادة عظيمة تنتظرك !

فاستغرب المجتمعون في بادىء الامر هذا الكلام الذي تفوه به الدرويش على غير انتظار ولكنهم ما لبثوا ان تذكروا ان هؤلاء الدراويش قلما يعتنون بنسق الحديث ولا يستبعد ان يستكشفوا اسرار الغيب ببصائر ارواحهم المتجردة من العالم المادي واردف الدرويش :

— اذا خطبك الى ابيك شاب من الشبان وكان ذلك في يوم هطلت امطاره وقصفت رعوده فلترض عائلتك بهذه الخطبة عن طيبة خاطر فان وراءها حياةً احلى من العسل حياةً ملوءها السعادة ، الثروة والجاه

فاجابت الفتاة ضاحكة:

— والى متى يجب الانتظار ؟

— لا اكثر من سنوات ثلاث

فقال الشقيق :

— واذا لم يطلبها احد في يوم مطير ؟

— عند ذاك فلتقدم على الزواج ممن تشاء فليس في ذلك حيف عليها.

وتناول الدرويش دفه ليطرب مضيفيه مفرجاً اياهم على الفصل الاخير واخذ ينقر عليه نقرات خفيفة منتظمة هازجا ببعض الاغاني التي لم يسبق لاصحابنا ان سمعوها .

***

الليل هادىء مهيب ، نيرة نجومه ، منعشة نسماته والجناح الايسر من سطح الدار خال الا من الزوجين الجالسين امام مائدة الطعام يتناولان العشاء بشهية زائدة .

فرغا من الطعام وهما لا ينفكان يتحادثان بغبطة وانتعاش . الزوج يتطلع الى زوجته فيقرؤه على وجهها آيات من الجمال بينات ويسمع حديثها الشهي فتلتهمه اذناه التهام الانعام الشجية اما الزوجة فقد كانت ثملة بنشوة الحب المسكوب في جوارحها من لطف قرينها الذي لم يمر على زواجها به اكثر من ثلاثة اشهر .

— ايه يا عزيزتي لطيفة اظنك قد فكرت اليوم في اعطائي الجواب على سؤال الليلة البارحة

فتجاهلت الزوجة قائلة بابتسام :

— وماذا سألت الليلة البارحة ؟

— انسيت عافاك الله ؟انني سألتك ما هي اسعد ساعة في حياتك الماضية .

— فقهقهت الزوجة وقالت :

او تحسبني بحاجة الى انعام فكر للاجابة على هذا السؤال ؟

— اذن فاجيبيني عليه ناشدتك الله

— حبا وكرامة . . ان اسعد ساعة عرفتها في حياتي كانت في ذلك اليوم المرعد الممطر الذي بعثت به رسالتك الى ابي طالبا يدي . اجل تلك اسعد ساعة في حياتي الماضية

فضحك الزوج ومال الى وجنة زوجته طابعا عليها قبلة حارة

فقالت الزوجة : وانا الآن بدوري القي عليك سؤالا طالبة جوابا سريعاً

— اسألي . فاجيب

— ما هي اغرب ساعة في ايام حياتك الماضية انت ؟ اجبني

فاطرق الزوج مفكراً ثم رفع نظره قائلا :

— اسألي سؤالا غيره فليس في استطاعتي ان اجيبك على هذا

— مستحيل ! فلا مناص لك من الاجابة على هذا السؤال

فلم يحر الزوج جوابا توصلا منه الى اثارة الرغبة في نفس قرينته التي ما برحت مصرة على سؤالها

— قلت لك اجبني على سؤالي والا فانا اغضب عليك

فابتسم الزوج وقال :

اغرب ساعة في حياتي كانت يا عزيزتي قبل ثلاث سنوات ونصف تقريبا . . بالله دعيني يا لطيفة من سرد هذه القصة

— الا تنفك عن هذه المماطلة ؟

— انني اتذكر تلك الساعة الغريبة — اجل اتذكرها جيدا — لقد كان

النهار صحوا والطقس معتدلا عندما تركت دار ابي متنكرا طمعاً مني بالحصول على امنية نمت في القلب نمو الحبة خدمتها يد الفلاح

– خرجت متنكراً .. وفي اي قصد ؟

– كلما تذكرت تلك الصورة التي رأيتها في المرآة قبل ان اغادر الدار أكاد استلقي على قفاي ضحكا واستغرابا . . .

فقاطعته الزوجة قائلة :

– اف . . اوضح . . فانا لا افهم حديثك . .

– شعر طويل مسترسل مبعثر على كتفي ، لحية طويلة تملؤ عارضي ، عباءة عتيقة ودف بيدي

وهنا اخذ بديع يضحك ضحكا عاليا في حين ان زوجته لطيفة كانت تلوح عليها امارات الاستغراب بحيث يخيل للناظر انها كانت تحاول جمع شتات افكارها على اثر سماعها هذا الحديث .

– نعم يا عزيزتي . تلك كانت اغرب ساعة في حياتي . سيما تلك الدقيقة التي التففتم فيها حولي وانا اقر على الدف نقرات بطيئة منتظمة . . . لم يكد بديع يفوه بكلامه الاخير حتى حدجته قرينته بنظرة غريبة ملتهمة وصرخت ملقية نفسها بين ذراعيه :

– الدرويش المحتال . .

فاجابها بديع وهو يمطرها سيلاً من القبلات :

– محتال . . نعم . . ولكن في سبيل الحياة السعيدة !!

اللقيط

ما كاد ينتشر نبأ وفاة الغني ابراهيم ، عميد اسرة نعام ، الا وعم الاسى أهالي البصرة صغيرهم و كبيرهم ، وخرجوا والحزن ملء قلوبهم يشيعون الجنازة الى مرقدها الاخير

كان المتوفى صاحب ثروة طائلة حصل عليها بجده ونشاطه الممزوجين بعرق الجبين ، تقيض الآخرين الذين يرثون المال عن آبائهم وجدودهم . ولم يعرف الاهلون لابراهيم سوى ابن واحد يدعى داود في الثالثة والعشرين من سنيه ، ذي صفات حميدة واخلاق فاضلة قلما اتصف بها اقرانه من ابناء البلدة ، وكان داود قد تعرف بصبيحة وهي ابنة صديق لابيه فانس احدهما الى الاخر فتحابا وتعاقدا على الزواج .

مات الوالد فجاء موته حائلاً بين العاشقين وامانيهما ، وانشغل داود بامور شتى انسته مؤقتاً احاديث الحب وملتقيات الغرام

انه وكافة الاهل كانوا ينتظرون على احر من الجمر مرور شهرين على وفاة عميد الاسرة ليطلعوا على وصية الفقيد التي يجب الا تفض قبل انقضاء المدة المذكورة

***

فضت الوصية واذا بالرجل يوصي بمائتي الف ريبة لداود ومائتي الف

ربية لبعض افراد الاسرة، ومائة الف ربية تصرف ، تحت اشراف الحكومة ، على الفقراء والمنكوبين وخمسين الف ربية يشيد بها مدرسة تحمل اسمه وخمسة الاف ربية للخادمين والخادمات . وكان ضمن الوصية كتاب مظروف خط عليه ما يلي :

« لا يفضه الا ولدي العزيز داود »

وكان الوقت مساء فاخذ داود الكتاب بلهفة شديدة ودخل غرفته ففضه بعد ان اغلق عليه الباب :

« البصرة في ٢٥ كانون الاول سنة ١٩١٨

« عزيزي داود

« عندما تفض هذه الرسالة آخذاً في تلاوتها اكون انا اذ ذاك راقداً تحت اطباق الثرى رقدتي الابدية .. سنة الله في عباده : حياة فممات فذكرى لا تلبث ان تتلاشى في عالم النسيان .. !

« ستحزن يا داود لفقدك اياي لاني كنت ولم ازل حتى نفسي الاخير عاملاً على اسعادك دون ان ارجو منك شكراً معجلاً او معروفاً مؤجلا .. انما كان ذلك مني بسائق الحنو الابوي الذي تبثه الطبيعة في نفوس ابنائها

« أما وقد أسدل الستار بيني وبينك الآن يا داود فلا ارى بداً من ان افضي اليك بسر عظيم اخفيته عنك امداً طويلا ... انك يا داود ذو عزم حديدي فكن جلداً على تلقي هذا السر الغريب... ولولا امر خطير اخشى وقوعه لما فاتحتك بحرف مما سافاتحك به الان »

أخذت الهواجس تستحوذ على داود في هذه الدقيقة فتمنى لو ان باستطاعته قراءة الرسالة دفعة واحدة و بسرعة الفكر ...

« ها اني افضي اليك بالسر فاقول :

« انك لست بولدي وانا لست بابيك ! »

وهنا شعر الفتى بأن الصاعقة قد انقضت عليه فتمتم قائلا ... « لست بولده ... اذن .. ! » وامتلك مشاعره فقرأ :

« في ليلة من ليالي عام ١٨٩٥ الفيت ، لدي رجوعي الى الدار ، طفلا يولول وهو ملقى قرب عتبة الدار واذ دنوت اليه لاح لي انني كنت مخطىء النظر لان البكاء كان صادراً عن طفلين توأمين

« لا تسل عما شعرت به آنذاك يا داود من شعور الحنان وحسبك ان تعلم انني اسرعت فحملت التوأمين الى الدار وأبقيت امرهما مكتوماً ..

« لقد كان أحدهما طفلا والآخر طفلة ، فقامت زوجتي بعناية الطفل عناية الام بابنها واعطينا الطفلة الى صديق حميم لعائلتنا ليقوم باعباء تربيتها .

« ومرت الاعوام فماتت زوجتي دون ان يكون لها ابن سوى ذلك اللقيط المجهول نسبه ، فقمت انا بشؤونه قياماً حسناً حتى أصبح زهرة تقر العيون

« وكانت الطفلة تنمو في دار صديقي بنمو شقيقها في دارنا وكان الصديق يزورنا مع الطفلة فيجتمع التوأمان دون ان يعلما عن منشأهما أي شيء »

وصل داود بقراءته السريعة الى هذه الفقرة فمد يده الى قلبه كانه يريد ان يقلل من ضرباته المتزايدة ثم اردف

« وتحاب الشقيقان التوأمان وتعاقدا متعاهدين على الزواج في وقت قريب وكان الاهل يجهلون هذا العشق ابان نموه غير ان ظروفاً مختلفة سهلت لهم الاطلاع عليه.

« والآن فهل تدري يا داود من هما هذان التوأمان العاشقان ؟

« انهما ... »

وهنا أغمض داود عينيه ليتسنى له التخلص من الاطلاع على فكرة كان يخشى ان تكون حقيقة هائلة ولكنه سرعان ما فتح عينيه على غير ارادة منه وطالع مايلي :

« انهما داود وصبيحة ...! »

وهنا صرخ الفتى بصوت أجش :

« آه ... اواه ... » واستند الى مكتبه يجهش بالبكاء.

اتم الرسالة ولكنه لم يفهم منها اكثر من تلك الحقيقة المرة فشعر بوخزات مؤلمة توخزه في صدره ووجهه ورأسه وأحس ان الدمع نضب فجأة من عينيه لانه اراد ان يزداد بكاء فلم يجد من دمعه معيناً.

— « انا لقيط ؟ ابن زناء ؟ آه ويل لتلك الام وسحقاً لذلك الاب ؟.. من هما ابواي ..؟ ما أمر اليقظة بعد ذلك الحلم اللذيذ الجميل ! .. »

***

ظل داود حزيناً كئيباً لا يهدؤ باله ولا يقر قراره ، مقطب الجبين ، عبوس الوجه ، وفى احدى الليالي بينما كان في غرفته مرسلا لتصوراته اللامتناهية عنان الفكر اذ طرق باب الغرفة طرقاً خفيفاً وما لبث ان فتح على اثره ودخلت الغرفة « سعيدة » الخادمة القديمة في دار مربيه

— معذرتك يا سيدي ، ان شفقتي عليك وحنوي هما اللذان ساقاني الى المجيء اليك هذه الساعة

— شكراً لعواطفك النبيلة يا سعيدة ، ان عنايتك بي منذ امد بعيد واخلاصك لافراد هذا البيت قد جعلا لك منزلة سامية في قلبي. ولكن ما الذي جاء بك في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟

— ما هذا التغير الذي طرأ عليك حديثاً يا داود ، افض الي بدخائل لبك عسى ان اخفف آلامك الهائجة .. قل انطق ... الا تعتمد على اخلاصي ؟

— اجل اعتمد على اخلاصك يا سعيدة ! اجاب داود بنبرة حزينة ، ولكن الامر هائل والسر غريب

— افصح اكثر من هذا فاني لا افهم ما تقول

— انني .. آه ... رحمتك يا سعيدة لا تحتقريني

— انك ماذا ؟ قل

— انني ... لقيط ... لا اعرف ابوي ..!

فتظاهرت سعيدة بالدهشة غير ان امارات غريبة كانت تبدو على

محياها اذ ذاك وما لبثت ان قالت

— وهل يهمك ان تعلم من هما ابواك ؟

— يهمني كثيراً ان اعلم ذلك .

— قد يكون باستطاعتي ان اعرفك بامك البائسة ولكنني اجهل اباك !

فانتفض داود لدى سماعه هذا الكلام وحملق بوجه الخادمة قائلاً :

— اصحيح ما تقولين ؟ ومن هي امي ؟

— سأقول لك من هي لدى سنوح الفرصة

— بل يجب ان تقولي ذلك هذه اللحظة

وانتصب على قدميه هائجاً هياج الوحش الضاري

— اعلم يا داود ان امك من اتعس خلق الله حظاً تقضي حياتها منقطعةً عن الناس مصليةً الى الله ، انها نادمة يا داود ، نادمة على جريمتها من اعماق قلبها ، الا ترثي لحالها ياداود ، الا ترفق بها ؟

وهنا صرخ الفتى :

لقد عيل صبري ايتها المرأة فوهي باسمها . .

— فاعلم اذن يا داود ان المرأة الجاثية على قدميك هي امك ! اني اتوسل اليك فارأف بي ناظراً الى دموعي المنسكبة !! رحمتك يا داود رحمتك لقد دخلت خادمةً في هذا البيت بعد ان علمت ان حشاشة كبدي فيه ... ارحم امك يا داود . !

شعر داود لدى سماعه هذا الكلام ان الارض تميد به فاستند الى الجدار صارخاً بألم عميق :

انت امي .!

— معونتك يا داود معونتك قالت هذا وشرعت تقبل قدميه تقبيلاً

— انهضي ايتها السيدة انهضي ولا تنبسي بكلمة اخرى فلا أريد ان أعرف اكثر من هذا ! لقد صفحت عنك ولكننا يجب ان نفترق من هذا المقام افتراقاً لا لقاء لنا بعده .

***

بعد ايام معدودة سافر الفتى داود الى اميركة وهو لا يصحب معه اكثر من ثلاثة آلاف ربية حصل عليها باشغال خاصة ، وقد صمم الا يرى مسقط رأسه مرة ثانية وان يتناسى عيشه الماضي بما فيه من حلاوة الخيال ومرارة الحقيقة فاتحاً نوافذ نفسه ، في بلاد الحرية ، لتنفذها اشعة حياة عملية جديدة ... !

ضياع الاثنتين

في مساء أحد أيام الخريف كان قارب يتهادى على اكتاف نهر دجلة متجهاً مع المجرى الى ناحية الكرادة

وكان هذا القارب يحمل على ظهره فتى في ريعان الشباب تتدفق من وجهه ملامح الفتوة وتحمسها الناري ، والى جانبه فتاة تبلغ العشرين قد اسفرت عن وجه صبوح جذاب لا تفارق الابتسامة شفتيه

— الطبيعة كئيبة يا « وديع » والاشجار معراة لا ورق عليها ولا زهر !

— ولكن حبنا مورق مزهر ، ونحن مسروران مغتبطان بهذا الملتقى يا عزيزتي

— آه ليت هذا السرور يدوم لنا

— اجل سيدوم وان حاولت الظروف تفريقنا ردحاً من الزمن

بدت امارات الحزن على وجه الفتاة فتحركت قليلاً من مكانها وقالت :

لا تذكرني بالله يا وديع بدنو الفراق لان هذه الذكرى تهيج آلامي

— واي داع للالام يا عزيزتي ؟ ان فراقنا لن يطول اكثر من سنة واني لأشهد هذه المياه الجارية على انني سابقى محافظاً على عهود الولاء مؤالياً الا تكون لي سواك شريكة لحياتي ...

فتفجر الدمع من مآقي « نزيهة » غبطة وألماً !

***

سافر وديع الى باريس حيث شقيقه يتعاطى تجارة الحرائر والعطور ، فالفى ذاته في محيط جديد كل ما فيه جمال وابتسام ، فامتلك زمام مشاعره بادىء بدء ولكنه لم ير بداً بعدئذ من الاسترسال وراء اللهو ، استرسالاً ادى به الى معاشرة باريسية حسناء بادلته الحب والهيام

ولقد وجد وديع صعوبة شديدة في ممارسة اخلاق الباريسيين وعوائدهم ولكن بهجة باريس ولياليها المزدهرات ، بما فيها من اندية للانس ومقاصف للرقص ، اكسبته في زمن قصير كثيراً من العوائد المنقوشة بالالوان الباريسية الكاذبة

وكثرت ملتقيات الفتى والباريسية الحسناء ، وتوثقت عرى الود بينهما فتعاقدا على الزواج ، اجل تعاقدا على الزواج هذا مدفوعاً بطيش الشباب واسترساله وراء العاطفة المنطلقة التي كثيراً ما كابدت قيود الاسر في اوطانه النائية ، وهذه مدفوعة بدافع الهيام بالجمال الشرقي الذي كان متصفاً به وديع .

وتزوج وديع الفتاة الباريسية قبل ان يمر على سكناه باريس ستة اشهر ، ناسياً او متناسياً ان في بغداد قلباً طاهراً يدق حباً له ، وفكراً منزهاً لا تشغله سوى احلام المستقبل القريب

وطال مكوث وديع في باريس وفي ذات مساء فاتح قرينته بالسفر الى

بغداد فما كان منها الى ان قابلت طلبه بالارتياح لانها كانت تود من صميم القلب ان تزور بغداد تلك البلدة الغريبة التي كثيراً ما قرأت عنها في قصص « الف ليلة وليلة »

وقبل وصول الزوجين الى بغداد سبقتهما الاخبار الى الاهل والاصدقاء. ولا تسل عما حاق بالفتاة « نزيهة » من الحزن لدى علمها ان ذلك المحب الذي ما زالت أقسامه ووعوده ترن في اذنيها ، قد نكث العهود ساحقاً الماضي ، بما فيه ، تحت اقدامه

ونزلت الباريسية صحبة زوجها في فندق فخم من فنادق عاصمة هرون الرشيد . ومن ثم انتقل وديع الى دار ابيه بعد ان نظم اثاثه على الذوق الباريسي حسب المستطاع

لم يترك وديع اثراً قديماً من آثار العراق لم يطلع عليه قرينته ، وقد أنست الفتاة الى كل ما وقع بصرها عليه من ابنية هذه البلاد ، وشوارعها وأسواقها

وفي احدى الليالي فاتحت زوجها قائلة :

— لقد اخذت أمل البقاء في هذه البلاد المقفرة !

فاجابها وديع بلهجة المتحبب :

— ولكننا لا نستطيع السفر قبل مرور شهرين آخرين لان شؤوننا تجارية تضطرني الى البقاء هنا الآن

— قلت لك انني ملات البقاء و كفى...

– كما تشائين يا عزيزتي . سنتأهب للسفر عاجلاً

وكان وديع نفسه يكره البقاء في بغداد لان أقاويل الناس واشاعاتهم كثرت عنه وعن قرينته وحدث ذات مساء انه لدى رجوعه الى الدار أبصر زوجته الحسناء تتأهب للخروج وحدها فسألها الى اين ؟ فاجابته :

– لي موعد خاص مع المسيو عمانوئيل الباريسي النازل في اوتيل كارلتون .

قالت هذا وانصرفت تاركةً وديعاً على عتبة الدار يكظم الغيظ الذي احرق قلبه ساعتئذ !

وانتظر زوجته على احر من الجمر فلم تعد قبل منتصف الليل ... وهنا في هذه البلدة التي تنشق منها نسمات حياته الاولى ، هاجت عليه مشاعره الشرقية التي توارثها عن آبائه وجدوده واخذت الغيرة تلسع فؤاده لسع العقرب ولكن انى له ان ينبس بكلمة تشف عن لوم او تذمر !

وعاد الاثنان الى باريس . ومرت ايام على وصولهما واذا بوديع يعاني الامرين من اخلاق زوجته لانها تطورت تطوراً غريباً .

وفي شهر تموز الماضي توسعت هوة الخلاف بينهما فأدت الحال الى الطلاق

مسكين وديع لقد اصبح صفر اليدين !!

شرع يبحث له عن قرينة جديدة فرأى من الجنون ان يقترن هذه المرة ايضاً بأحدى بنات باريس لذلك وجه نظره شطر بغداد مسقط رأسه

فهاجت ذكريات الماضي واحدة فواحدة فأنب نفسه على خيانته عهود حبيبته « نزيهة » معتزماً الرجوع الى بلاده للوقوع على قدميها معتذراً

عاد وديع الى بغداد فعلم ان حبيبته القديمة لما تتزوج فرأى من الاوفق ان يفاتحها بندمه الشديد كتابةً فانشأ لها رسالة تقطر دمعاً وندما وما لبث ن ورده منها الكتاب التالي :

« الى وديع .... »

« لم ارد ان افهم كلمة مما عنيت . لقد مات ذلك القلب الذي »
« شاطرك الحب زمناً فابحث عنه الان في المقابر . واني لناصحتك بان »
« تطرد هذه الفكرة اذا ما عاودتك »

« ن ... »

قرأ وديع هذه الكلمة الموجزة الغريبة اللهجة فهدد السماء بقبضتيه قائلا :

الاثنتان يا رب ... ! الاثنتان ... !

مشاهد ليلة

في منتصف ليلة الجمعة الماضية، غادرت وبعض الاصحاب « ملهى امبريال » بعد ان قضينا فيه سويعات سرت عن القلب همومه، وعرضت للعين منحى مزخرفا من مناحي الحياة واذ نحن نسير على رصيف الشارع العام عثر احد الرفاق بجسم كبير، مما استرعى انتباهنا فوقفنا نستطلع الخبر.

— سامحك الله يا ابن الحلال في الدنيا والآخرة

قال ذلك متسول رث الثياب، مكمد الوجه وهو يرفع رأسه قليلا عن الحجر الذي كان قد اتخذه وسادة. اذ ذاك علمت ان ما عثر به صديقي كان انسانا راقداً على قارعة الطريق

وكان الموقف مؤلماً، استفز مشاعر الصحب فمضوا متأففين اما انا فانتهزت فرصة انشغال الرفاق بمعاتبة العاثر وبقيت مكاني اتطلع الى هذا الانسان المتشرد الذي لفظه المجتمع، وضاق به على رحبه فاتخذ الفضاء لحافاً والارض فراشاً وهو لا يملك سوى ثوب رث يكاد لا يستر عوراته.

وكانني كنت شاعراً ساعتئذ بالالم يوخز قلبي فيدفعني الى استئناف سيري واللحاق باصحابي غير انني كنت اقوي عزمي متجلداً واطيل النظر الى هذا الراقد الشقي

انه استسلم الى الرقاد ثانية واخذ يغط غطيطا تارة يعلو وطوراً ينخفض، فخيل الي انني اسمع في هذا الغطيط شكوى مرة وسخطاً على البشرية. ودنوت اليه بخطوات بطيئة فاذا بصدره وثدييه وذراعيه معرضة للعراء وتطلعت في وجهه فاذا بابتسامة كئيبة تبدو على ثغره المتجمد فتزيد شكله غرابة في اعين الناظرين !

— بماذا يحلم هذا البائس يا ترى ؟ قلت ذلك في نفسي وانا استعرض قساوة الانسان واستئثاره .

ولم يطل موقفي هذا حتى ابصرت صبياً لا يتجاوز الثامنة من سنيه ، جاء مهرولا نحو هذا الفقير الراقد وشرع يهزه من كتفه بكل قواه غير ملتفت الي :

اى (نصف رغيف)

— ياب — ياب — ياب — جبت نص كرصة خبز

كان الصبي يوقظ اباه وعيناه لا تفارقان كسرة الخبز التي في يده وما هي هنيهة حتى استفاق الاب منذعراً فابصر ولده قد عاد حاملا نصف رغيف من الخبز فبرقت اسارير وجهه استبشاراً وقال مخاطباً ابنه .

— بارك الله فيك يا ابني منين حوشت هالخبز ؟

فاخذ الابن يسرد على ابيه الذي انتفى النوم من عينيه كيفية حصوله على كسرة الخبز هذه فارهفت سمعي وانا واقف ازاءهما فاذا بي اسمع ان الابن كان قد ارسله ابوه مساء في طلب قليل من العيش يسدان به رمقهما ، لان التعب والجوع كانا قد اخذا منه كل مأخذ ، فسار الابن

مخترقاً الشارع العام ، فلم يحظ بمن يتصدق عليه بدرهم يسد به حاجته . ثم سار يجوب الشوارع والازقة الضيقة مستعطياً شاكياً ، فلم يجد من يلبي نداءه ، وفيما كان يسير والليل قد قارب الانتصاف ، طرق سمعه عزف وغناء في احدى الدور ، فتوجه الى مصدر الصوت فابصر بابا مفتوحا وباحة دار تألقت فيها الانوار . واذ كان الصبي متردداً بين ان يقدم على الاستجداء من اصحاب تلك الدار او يرجع من حيث اتى خرجت من الدار قطة سوداء تعدو حاملة بفمها قطعة كبيرة من الخبز فحدث ان اصطدمت القطة بالصبي المتسول فرمت الخبزة من فمها وولت مذعورة فما كان منه الا ان التقطها ومضى يعدو الى حيث ينتظره ابوه !

كان الابن يقص على ابيه قصة الخبز الذي منت به القطة وامارات الجذل تبدو على محياه المصفر . وكان والده يبسم له وهو يمضغ رويداً رويداً كانه يخشى نفاد الخبز بسرعة .

— الحمد لله والشكر يا ابني . الحمد لله والشكر !

قال المتسول ذلك وهو يحاول الاضطجاع ثانية دالاً ابنه على حجر قريب ليتخذه وسادة لينة .. ودقت الحادية بعد منتصف الليل وانا اشرف على هذا المشهد من مشاهد الحياة ، وكاني نسيت اذ ذاك ان علي ان ارجع الى الدار وان شقيقي ينتظر قدومي فاخذت افكر وانا على رصيف الشارع فيما يعانيه الانسان من جور الانسان نفسه .

— أ الى هذا الحد من العسف والطغيان بلغ المجتمع ، فصم اذنه عن

صرخة مظلوم واطبق جفنيه دون رؤية دموعه ؟ او هذا الفقير المتشرد النائم على قارعة الطريق هو الوحيد من نوعه ام هناك عدد من امثاله يملؤون الشوارع ليل نهار ؟

كانت الافكار تجيش في نفسي ثائرة ثورة بركان رهيب ، فتخليت يوماً اسود يشتد فيه البؤس حتى يبلغ اقصى حده فينقلب شعلة نار تلتهم ما تجده امامها بلا تأن ولا رأفة وبينما انا على هذه الحال تتقاذفني الافتكارات الغريبة اذ اقبل حارس الشارع يحمل بندقيته فلحظ شخصاً ممدداً على طريق الناس فرفسه برجله صارخاً :

— مال البلى

فانتبه الفقير مذعوراً وانتصب للفور حادجاً الحارس بنظرات نارية فما كان من الاخير الا ان صرخ في وجهه مهدداً اياه بسوقه الى مخفر الشرطة ان لم يبحث له عن مكان آخر .

وكان الصبي قد استيقظ على اثر هذه الجلبة فامسك بذيل ابيه ومضى واياه يتعثران .

— فالى اين كانت وجهتهما يا ترى ؟!

المقامر

منذ سنتين فقط تسرب الى (ن ...) حب القمار، وكان هذا الحب بادىء بدء ميلاً فامسى شغفاً وما لبث ان تغلغل في دمه تغلغلاً أصبح معه عادة متأصلة لا سبيل الى التخلص منها

و(نون) فتى قد حصل على تعليم كافٍ يؤهله للدخول فى معترك الحياة وكان قد توظف قبل بضع سنين في مصرف شهير من مصارف العاصمة، حيث أخذ يتدرج في سلم الرقي حتى أصبح رئيساً للمحاسبين

شخصية محترمة، راتب ضخم، زوجة صالحة، ذلك بعض ما كان يتنعم به «نون» في حياته الاجتماعية ولكنني لا أدري كيف هوى في تلك البؤرة السحيقة، بؤرة القمار الذي يحمل للمرء كاساً مرة المذاق لا بد من تجرعها

دعاه أحد الاصدقاء ذات ليلة الى زيارة خصوصية فلباها عن طيبة خاطر، وفي الليلة تلك تعرف بأناس غرباء لم يكن ليعرفهم قبل ذاك من بينهم امرأة ذات جمال فتان يسحر العقول، جذبته جذباً

ولم ينقض بضع دقائق حتى نصبت طاولة الميسر ودار القمار دورته غير ان صاحبنا (ن ...) لم يمد الى اللعب يداً انما كان شأنه شأن المتفرج. وتتابعت زياراته هذه فلم ير بداً من تلبية دعوة القوم الى لعبة

البوكر فلعب متسلياً .

ومرت شهور واذا بنون قد أصبح من أكبر المقامرين واعظمهم شأناً ، لا يحمي وطيس المقامرة مالم يرأس هو اللاعبين ..

***

ما أتعس زوجته ، كم ليلة سهرت تنتظره على أحر من الجمر وهي بين غالبة للنوم و بين منغلبة ، و كم أنبته على تأخره فكان يزجرها زجراً

وزارت الزوجة ذات يوم بيت ابيها فسألتها امها باستغراب : « أين أساورك وخواتمك ؟؟ اني أرى معصميك واناملك عارية ؟ »

— لقد حفظتها في البيت يا اماه !

وأدارت وجهها تمسح دمعة حارة تدحرجت على وجنتها

لقد ارغمت ارغاماً على بيع حليها باسرها ، فكانت المسكينة ترضخ صاغرة لان المرغم زوجها ولانها امرأته ..!!

وطلب اليها ذات يوم أن تبيع فسطانها الثمين الذي ارتدته ليلة الزفاف فأبت فزجرها فاصرت فشتمها مهدداً فأستسلمت ناحبة باكية .... ما أشقاها بهذا الزوج المقامر الذي أهمل شأن ولديها مرهقاً اياها بضروب الجور ؟ ورغم ذلك فهي ماكانت لتنبس بكلمة شكوى خارج بيتها أو أمام زائراتها

***

أرأيت تلك الحشرة الفتاكة ، تنخر قلب الشجرة حتى تودي بحياتها ،

هكذا كان شغف المقامرة ينخر نفسية نون قاتلاً طباعه الحميدة واحدة فواحدة قائداً اياه الى مهواة الرذيلة وبات نون يمل أعمال دائرته بعد ان كان يأنس اليها ايما ايناس ، ينتظر نهاية الشهر بفروغ صبر ، يجمع عليه الديون ، يبيع ما لا يحتاج ومايحتاج اليه من الاشياء ، كل ذلك ليتسنى له الاشتراك في الجلوس حول طاولة القمار

***

نبأ مفزع ما كاد يتصل بالزوجة ، حتى اقشعر له بدنها ومفاده ان الشرطة قد القت القبض على زوجها واودعته التحقيق بناء على تهمة التزوير الموجهة ضده من مدير المصرف الذي يعمل فيه وكانت ترجو بطلان هذا النبأ ولكنها مالبثت ان وثقت من صحته لدى تساؤلها من مديرية الشرطة ، فاظلمت الدنيا في عينيها ، وارادت ان تلقي نفسها في دجلة لو لم يتصل عزمها بالاهل فيتداركوا الامر ملطفين سورة هياجها وألمها

لم يبق لها سوى أمل ضعيف هو ان المحكمة قد تبرىء ساحته

***

واستغرق التحقيق في هذه الدعوى ما يقارب ستة أشهر كان نون خلالها رهن التوقيف ، وفي يوم المحاكمة النهائية اكتظت ردهة المحكمة بجمٍ غفير حضر ليسمع قرار الحكم على نون . وكان نون واقفاً بالقرب من منصة الحكام شاحب اللون مطرق الرأس خجلاً . ولم يطل الانتظار حتى أعلنت المحكمة صدور الحكم على نون بالسجن خمس سنوات بناء

على ثبوت ارتكابه جرم التزوير..

ولم يكد يفرغ كاتب المحكمة من اعلان الحكم حتى علا ضجيج الجمهور وهنا طرق سمعي رغم الضوضاء القائمة اذ ذاك صرخة مؤلمة صادرة عن قلب موجوع وكلمات فهمت منها ما يلي :

آه ما اسوأ حظي... أيسجنون زوجي خمس سنوات...

واقطع الصوت بغتةً

غادرت المحكمة بعد ان علمت ان زوجة المحكوم كانت حاضرة لدى اعلان الحكم وقد حملت الى دارها مغمياً عليها...!!

صفقة خاسرة

لم يذعن « عزيز » الى رغبة اهله في تزويجه الا بعد مناقشات مستمرة ومجادلات عنيفة اظهر فيها الاهل عزماً ومهارة في اقناع الفتى للنزول عند مشيئتهم ولم يبق على الاهل الا اختيار الزوجة اللائقة لمقاسمة عزيز سراء الحياة وضراءها

وما شاع خبر تصميم الفتى على الزواج الا وود الكثير من اولياء فتيات بغداد ان يتيح لهم الحظ مصاهرته لانهم كثيراً ما سمعوا عما له من لياقة ومقدرة في اعماله التجارية غير ان اغلب الطامحين الى هذا الزواج عادوا خائبين اذ علموا ان عزيزاً يرغب من وراء القران في الحصول على مبلغ وافر من المال

***

وكان لعزيز صديق حميم ذو اخلاق متينة ومعرفة جمة لم يقدر على كتمان استغرابه واسفه لدى علمه ان عزيزاً ما عاد يفهم من لفظة الزواج سوى الاثراء ضارباً صفحاً عما يجب ان يتطلبه شاب نشيط مثله من جمال الزوجة وكرامة خلقها ولطف معشرها . وقبيل عقد خطبة عزيز على احدى الفتيات ببضعة ايام تلاقى الصديقان واذ رأى يوسف ان الفرصة سانحة لابداء رأيه فاتح عزيزاً بقوله :

– واخيراً قد صممت على الزواج يا عزيز ؟

– نعم وسيجري في القريب العاجل

– أصحيح انك ستعقد الخطبة على ابنة عائلة (ف ...)

– نعم و كيف اتصل بك الخبر ؟

فتضاحك يوسف وقال :

او تحسب ان هناك فرداً من معارفك يجهل هذا النبأ ؟.. ولكن الشائع يا عزيز ان الفتاة غير جميلة حتى ان بعضهم يقول انها ذات قامة قصيرة لا تتناسب مع طول قوامك فضلاً عن انها جاهلة قبيحة الصورة

فابدى عزيز مللاً لدى سماعه هذا الكلام ولكنه لم يجد بداً من الاجابة عليه :

– ليست الفتاة بهذه الدركة من القبح على انني لا استطيع القول انها جميلة . ولكن الا تعلم انها غنية بيائنتها التي تقارب الثمانين الف ربية اجل ثمانين الف ربية على اقل تقدير

– او تحسب يا عزيز ان المال الوافر سيجعل قبحها جمالا ونقصها كمالا... ؟ او انك سترتشف كأس السعادة الزوجية من عصير الفضة والذهب ؟ ان ذلك لجهل واي جهل !

– بل قل ان ذلك لذكاء واي ذكاء او تنكر يا هذا ان مجتمعنا لا يحترم سوى ارباب المال او بعبارة اوضح انه لا يعظم سوى المال فهل من عجب اذن ان اسعى للحصول على الثروة من اي درب كان ؟ لا

تجهد فكرك لتتأكد من صحة قولي اذ يكفيك ثقة ان تلقي نظرة على ذاتك . نعم على ذاتك انت

— لا افهم ما تعني بهذا الكلام

— يحق لك الا تفهم معنى كلامي لانك لا تود فهم الحقيقة المرة ومع هذا فلا بد من زيادة الايضاح : انك يا يوسف كاتب اديب كثيراً ما ملأت اعمدة الصحف بنفثات قلمك (على اصطلاح اصحابك الادباء) فاي وزن اقام لك المجتمع واي امل لك في المستقبل من وراء قلمك ؟

— ان املي لأكبر مما .....

فقاطعه عزيز قائلا :

اما انا فآمالي وطيدة وتحقيقها قريب المنال ما دمت ابنيها على اسس المادة لا الخيال .. غداً اصبح غنياً .... فينظر الي الناس نظر الاحترام ويحييني من لم اكن اؤمل تحيته ويبسم في وجهي من كان يصد عابساً اما الجمال والسعادة وغيرهما من الاعتبارات الوهمية فلست اعبؤ بها ولئن تناقشني عنها فاني اجيبك :

« لا قيمة للجمال بلا سعادة ولا سعادة بلا مال »

أخذ التأثر من يوسف كل مأخذ ولكنه لم يشأ ان يقاطع كلام عزيز فتمالك مشاعره الى ان جاء دور كلامه فقال :

اراك تحدثني بلهجة لم اسمع نظيرها منك قبل اليوم واني لآسف كل الاسف لانقيادك الى مبدأ مثل هذا ما كنت لارجو ان تتصف به .انك

مخطىء في نظرياتك يا عزيز فاعدل عن هذا الزواج الذي قد يجر عليك ، وان كان آجلاً ، شراً وبيلاً ... فقاطعه عزيز قائلا ببرود :

— بل قل خيراً جزيلا .. وقهقه عالياً ثم قال متهكماً : أأحسن التسجيع ؟

— أجل انك تحسن التسجيع ولكنك لا تحسن فهم معنى الحياة ... ومتى اصطدم فكرك الثائر بصخرة الحياة الصماء فانقشعت عن عينيك هذه الغشاوة السوداء علمت انك في طريق مقفرة ليس لك فيها مصاحب أو معين .. حتى ولا شجرة تتفيأ ظلها .. أو جدول تبرد منه غلتك .

— سنرى ..!

— أجل سنرى ومهما يكن من تنافر آرائنا فانا ادعو لك بالتوفيق في كل عمل تأتيه

***

تزوج عزيز تلك الفتاة الغنية بمالها ، الفقيرة بجمالها ، غير آبهٍ لتقولات الناس عن هذا الزواج لان رنين الدراهم صم اذنيه عن سماع ذلك . انه اصبح غنياً ذا ثروة تبلغ المائة الف ريبة . ومائة الف ريبة في قطر فقير كالعراق ثروة لا يستهان بها

ورغم قبح زوجته التي يربو عمرها على سنيه فقد كان يأنس اليها ويرى فيها صورة فتانة سيما اذ تتحلى باساورها الثمينة وخواتمها اللؤلؤية

ومرت الايام آكلةً ببطء ثروة الزوج كما تأكل النار فحم الموقد ولم تنقض سنوات ثلاث حتى اصبحت تلك الجذوة المتأججة رماداً لا يحيي

ولا يبعث الى النفس نشاطاً ... وقال عزيز محدثاً نفسه :

« انها عارضة من عوارض الدهر يجب ان اتحملها بصبر محافظاً على صرح حياتي العائلية من الانهيار .. » يالله من شقي بائس جهل أو تجاهل ان بناء عائلته لم يشيده الا على اساس من الرمال .. كان يتظاهر في داره بالراحة ، لكن حقيقة أمره كانت على عكس ذلك وبعد ان استيقظ فكره الراقد وتنبهت شيئاً فشيئاً عواطفه المخدرة أخذ يبصر في غرفته مثالاً مجسماً للقبح لا يتسنى له الخلاص من رؤيته صباحه ومساءه .

وفي هذه الآونة شرع ينظر الى دمامة زوجته بعينين مفتحتين تلاحظان كل عضو من أعضائها ولكم لاحت له صورتها ليلا وهو مغمض الجفنين مستلقياً على فراشه يروم الرقاد ، ولكم حاول طردها من أمام عينيه فلم يجد الى ذلك سبيلا!

لقد لفحت حياته الزوجية شمس الحقيقة المحرقة ولذعت سعادته الموهومة حية رقطاء . فما عاد ينظر الى قرينته الا بمقت شديد معاملا اياها وطفلها بخشونة وجفاء !

ومنذ سنتين ونصف — على ما اتذكر — سافر الزوج الى البصرة لقضاء بعض الشؤون التجارية واعداً زوجته بالرجوع قبل مرور اسبوعين ولكنه لما يعد الى بغداد

ليس هنا او في البصرة من يعلم مقره فأين أصبح يا ترى ؟

هل انتحر ؟ ام قد هرب من القطر العراقي .... ؟

هذيان زوجة

الساعة الثانية عربية ليلاً والرهبة سائدة على الدار لا يقطع السكون المخيم سوى خطوات الرائحين والغادين بسرعة

وكان الزوج وعدد من الاهل ينتظرون بفروغ صبر، خارج غرفة الزوجة، ما ستبشرهم به المولدة اذ ذاك، ولم تنقض الساعة الثالثة حتى وضعت الزوجة حملها واذا به ابنة !! .

بنت ..! بنت ..! بنت ..! ذلك ما تناقلته الالسن بين سكنة الدار بسرعة البرق، وبنبرة خافتة جمعت بين الاسف والحزن

ولقد اغمي على الزوجة على اثر الولادة أما الزوج فقد علا وجهه الاصفرار وتجعدت ملامح وجهه وان يك قد حاول كثيراً أن يملك زمام مشاعره لدى سماعه النبأ

وأخذ اللغط يكثر في هذه الدار الواسعة فمن متظاهر بالفرح ومن آسف ومن قائل :

مسكينة هذه المرأة وتعيس هذا الزوج . ألم يكفهما من بؤس الحياة ان لهما أربع بنات فجاءت تخمسهن المولودة الجديدة ...!

***

عرفت هذه العائلة من تلكم العائلات التي تدعي الحسب والنسب ،

تبالغ في الظهور أمام النـاس من جهة وتتحـاشى الاختلاط بهم من الجهـة الاخرى

وكان الزوجان على أمل عظيم ان مولودهما الجديد سيكون ابناً يضع حداً فاصلاً لبنات اربع ، وما لبث ان خاب الامل ، اذ اصبحن خمساً يحار الاهل بهن ويحذرون مصيرهن المبهم في هذا المجتمع الذي لا يرأف بالانثى ، انمـا يحسبها سلعةً من سلع البيت تباع وتشرى باثمان معينة هي — حسبما تقتضيه الحال — عرضة للهبوط والارتفاع

وبقي الزوج حاقداً على زوجته ، لا لجرم اقترفته ، او ذنب ارتكبته ، سوى كونها وضعت ابنة ولم تضع ابناً . وظلت كأس الزوجين مكدرة خلال الشهر الاول لحياة الطفلة ، تكديراً أوشك الزوجان معه ان يملا الحياة وفي ليلة من الليالي دار حديث غريب بين الزوجين فهمت منه الزوجة ، ان شريكها في الحياة ما عاد يطيق النظر الى الطفلة الصغيرة وهو يتمنى من صميم القلب وبأية وسيلة من الوسائل أن يتخلص منها

أطلعت الزوجة على رغبة الرجل تلك الرغبة التي عرضها ملمحاً فهالها الامر وقضت ليلتها باكية ناحبة

« مـاذا يريـد زوجي بهذا الـكلام ؟ أنلطخ أيدينـا بدم ابنتنـا (فريدة) ... آه .. اني أكاد أجن يا رب ! » وتلاطمت أمواج الهواجس في نفس الزوجة التي أحست هذه الدقيقة بمـا لم تحس به قبلئذٍ من ضعف المرأة وحقارتها أمام الرجل الصلف العنيد الجبار . وأرادت أن تستسلم

الى الرقاد عسى أن تريح فكرها التعب فلم تجد الى مرادها سبيلا !

و كانت كلما ألقت نظرة على طفلتها الراقدة في المهد رقاد الملائكة أدارت وجهها ، والدمع يتساقط من جفنيها مدراراً

– كلا ان ذلك لن يكون ويجب ان تحيا « فريدة » الى ما شاء الله

***

قبل ان تبلغ الطفلة الشهرين من عمرها لفظت انفاسها الاخيرة فدفنت بكل هدوء وقد تساءل الناس عن سبب موتها الفجائي فقيل انها اصيبت بمرض من تلك الامراض التي كثيراً ما تودي بحياة الاطفال وانقطع الحديث عن هذه الطفلة اذ ماذا يهم الناس من أمرها وهي بنت لم تتمتع بنور الشمس سوى أيام معدودة . . .

وعلى اثر وفاة الطفلة مرضت الام مرضاً شديد الوطأة ، لازمت الفراش من جرائه زهاء الشهرين وقد حدث اثناء مرضها حادث غريب لم يطلع عليه سوى طبيبها الخاص والخادمة التي تعتني بشؤونها وبعض الاهل المقربين

الزوجة مضطجعة على فراشها تنتابها حمى شديدة ، والطبيب يبذل جهده في معالجتها ، والاهل في سكوت ووجوم

– لتفتح النافذة . . . لتفتح عاجلا

وفتحت النافذة فنفذت الغرفة أشعة الشمس الوهاجة فانتفضت المريضة في فراشها انتفاضاً لحظه الحاضرون وما لبثت ان أخذت تهذي هذياناً

عنيفاً متقطعاً انهك قواها

وكان السكون سائداً فوجهت رأسها الى الحاضرين قائلة :

من انتم ..؟ مـاذا تريدون ..؟ اخرجوا ... اخرجوا أو قمت اخنقكم واحداً واحداً ، نعم اخنقكم ... اخنقكم كما .. آه .. رباه اخرجوا

وهنا ثار ثائرها فخشى الكل عاقبة هذا الهذيان فغادروا الغرفة مسرعين ووقفوا ازاء الباب ينصتون فسمعوها تهذي :

انا .. انا لا .. هو .. أي هو فقط .. انا خنقتها ؟ لا! هو .. بيديه .. انا .. رضيت نعم رضيت بما عرض ... هو خنق .. هو .. هو .. فقط .. آه ... وهنا ارتخت اعصابها فاغمي عليها

***

بعد نصف ساعة حضر الزوج فالفى الطبيب يسعف الزوجة لافاقتها واذ فتحت عينيها فوقعتا على زوجها الواقف آنئذ قربها أدارت رأسها الى جهة الجدار قائلة :

أنت هنا ... ويلاه ..!

الزهاوي يقاوم الاستبداد

— باذن خاص من حضرة الاستاذ —

* جرت حوادث هذه الافصوصة ، على ما حدثني الاستاذ الزهاوي ، خلال شهر كانون الاول من عام ١٨٩٦ يوم كان بعيداً عن دياره واقاربه، يراقب بعيني شاعريته الحساسة اشباح الظلم والاستبداد تبدو باشكال مؤسفة مرعبة

وجميل الزهاوي يومذاك يسكن الاستانة التي كانت تغلي بما فيها من ظلم وتعسف وجور واستبداد غليان المرجل ، وفي غربته هذه كان الشاعر يذكر وطنه النائي وما يعانيه من الاهوال تحت ضغط المتجبرين المتسيطرين، فيخفق قلبه وتدمع عيناه !

وللشباب نزوات وطموح ، وللغربة وحشة تبعث على التفكير العميق . والقلب الذي يفتح نوافذه للحب، سيما قلب الشاعر ، يسمح لاشعة الحكمة والحق بالولوج

وكان جميل الزهاوي يشعر بفراغ في روحه ، فيرجو املاءه ، لذلك فهو يريد ان يحب ، يريد ان يطير صيته ، يريد مقاومة الاستبداد ويريد

* آثرنا الا نحرم مجموعة الحصاد الاول من هذه القصة ومن القصة التي تليها وان لم تجر حوادثهما في بلاد العراق وحسبنا مبرراً على ادماجنا اياهما في مجموعة قصصنا العراقية ان بطلهما شاعر العراق الشهير ...

اموراً جسيمة يضيق بها خياله الشعري

وقد كان يجد في نفسه ميلاً شديداً لمناصرة الترك الاحرار الذين اخذوا يسعون لهدم قلاع الاستبداد الحميدي فكان يجتمع بهم بين آن وآخر عاملاً معهم يداً بيد

***

الساعة التاسعة زوالية ليلاً والقاعة خالية الا من شخص يخطر فيها ذهاباً وايابا وما هي هنيهة حتى طرق الباب طرقتين خفيفتين ثم سمع من الخارج صوت خافت يقول بالتركية :

— « الحرية نعشقها ، الحق ينصرنا »

سمع صاحبنا هذا الكلام فاسرع وفتح الباب ضاغطاً على زر خفي فدخل شاب طويل القامة نحيف البنية وقبل ان يرفع التحية طرق الباب ثانية طرقتين خفيفتين وسمع صوت يقول :

— « الحرية نعشقها ، الحق ينصرنا »

وفتح الباب فدخل شخص ثان ، وبعد بضع دقائق اصبح في القاعة ما يقارب العشرة اشخاص بينهم جميل الزهاوي وعبيد الله البغداديين وعبد الحميد الزهراوي وعدد من الاتراك الاحرار

وانبرى رب المحل مفتتحاً هذا الاجتماع السري الخطير الذي كانوا يرمون من ورائه الى وضع الخطط لمقاومة الاستبداد الحميدي الهائل فالقى خطبة مسهبة عن سوء التصرف المتفشي في الامبراطورية العثمانية

محرضاً رفقاءه الزعماء على ان ينهضوا للدفاع عن الحق والحرية الى ان قال:

— وانا ادعو الرفاق لابداء آرائهم فان المناقشة في مثل هذه الظروف لمن أهم الامور

فانبرى المتآمرون واحداً فواحداً يجيبون على خطاب الرئيس الذي لم يكن سوى « صفا بك » الشاعر التركي المعروف واذ جاءت دورة جميل نهض صفا بك قائلا :

— كلنا هنا نحسن العربية فالاوفق لرفيقنا الزهاوي ان يلقي خطابه بلغة بلاده

فانطلق الزهاوي يدفعه الحماس ، ويرشده الحب الوطني ، ملقياً خطاباً ندد فيه بمظالم عبد الحميد حاثاً اصحابه على الاستماتة في سبيل التحرر من هذا النير حتى قال :

— او لا ترون ان حياة الذل والخنوع لاهون منها الموت ، نحن قوم كرام نريد ان نحيا بحرية وطمأنينة وما نريده حق من حقوقنا المشروعة — أيموت الشعب كداً وتعباً ليتنعم امراء يلذز في مقصوراتهم حيث الخلاعة والفجور ؟ في ذمة الله تلك الارواح الطاهرة التي ازهقت على غير جرم او ذنب ! لنمت في سبيل الحرية ! ليسقط الظالمون !

وكان قد أخذ منه التأثر كل مأخذ وما لبث ان شرع في انشاد قصيدة يخاطب بها عبد الحميد حتى اذا قال :

تمهل قليلا لا تغظ امة اذا ✲ تحرك فيها الغيظ لا تتمهل

وايديك ان طالت فلا تغتر بها ✲ فان يد الايام منهن اطول

بدا الانزعاج على وجهه فارتمى على مقعد قريب خائر القوى .. وفي الساعة الحادية بعد منتصف الليل خرج الرفاق مثنى وثلاث وكان قد رافق الزهاوي في خروجه شخص يسمى عماد الدين بك تعرف به منذ اسبوعين في مثل هذا الاجتماع السري وكان عماد الدين بك هذا لا ينفك مظهراً اعجابه بالزهاوي

وقبل ان يفترقا عن بعضهما قال البك :

— اودعك يا عزيزي شاعر دجلة وحذار ان تنسى موعدنا غداً لتناول العشاء في دارنا

فاجابه جميل مداعباً :

— أتدعوني الى العشاء ؟ اذن ساقطع عن الاكل منذ هذه الدقيقة كيما يتسنى لي افراغ كافة الصحون !

وافترقا ...

***

وكان مساء الغد فجلس عماد الدين ينتظر الزهاوي الذي لم يلبث ان اقبل عليه هاشاً باشاً

وقدم الطعام شهياً فاكل الصديقان بين المداعبه والممازحة وكان يثلثهما شخص غريب ادعى عماد الدين انه شقيقه

واذ ابصر صاحب البيت ان الزهاوي فرغ من الطعام ، قاده الى غرفة قريبة قائلا :

— هذه هي قاعة الاغتسال

فدخل جميل وحده متقدماً الى الحنفية لغسل يديه وفمه ، وما كاد يحرك الحنفية حتى هبطت به ارض القاعة وسرعان ما ابصر نفسه في قفص حديدي ضيق

واستولى الرعب على جميل من جراء هذه المباغتة المزعجة ، ولكنه تجلد وما لبث ان سمع صوت عماد الدين يقول :

لقد وقعت اليوم في ايدي اعوان جلالة الخليفة عبد الحميد ، فانتظر صدور الحكم ايها المغرور

***

بعد مرور ثلاثة اشهر على هذه الواقعة كان جميل الزهاوي في داره القائمة في محلة ميدان بغداد يقص على بعض الاصدقاء المقربين طرفاً مما صادفه في الاستانة من الاهوال وكيف ان السلطة العثمانية ابعدته الى بغداد مخفوراً .. فقال له صديق حميم ؟

— واليوم ؟ ألم تزل تحاول مقاومة عبدالحميد واتباعه ؟

فاجاب جميل بافتخار وشمم:

سأقاومهم .. اجل سأقاومهم حتى النفس الاخير وليس بعيداً ذلك اليوم الذي سيعلم به الظالمون اي منقلب ينقلبون !

الن هاوي وراحيل اليهودية

— باذن خاص من حضرة الاستاذ —

المسكن قائم في حي « بك اوغلي » من احياء الاستانة وهو على صغره بديع المنظر ، محكم التناسق . وكان السكون سائداً عليه اذ قد اوى أفراد العائلة الاسبانية القاطنة فيه كل الى فراشه بعد ان دقت الساعة اثنتي عشرة دقة ليلاً ....

وقد انفرد الاب والام بغرفة والابنتان بغرفة اخرى للمنام والعائلة الاسبانية هذه مؤلفة ممن ذكرنا : اربعة افراد لا خامس لهم

وفي هذا المساء الذي تبدؤ به قصتنا كان يلوح على وجهي الفتاتين امارات غريبة تنم عن عواطف غير اعتيادية حلت من قلبيهما اسمى محل وكانت كلتاهما تحاول اخفاء ما تبطنه عن شقيقتها وعن ابويها . وبعد ارتدائهما ملابس النوم انطرحتا على فراشيهما غير انهما لم ينطبق لهما جفن

كانت راحيل ، وهي الصغرى التي لم تتجاوز الثامنة عشرة ، تتظاهر بالنوم منتظرة على احر من الجمر تغلب الكرى على عيني شقيقتها الكبرى لتتمكن من مطالعة الرسالة المحبوبة التي دسها في جيبها عشيقها الشاعر البغدادي . ودقت الساعة الحادية بعد منتصف الليل فقالت محدثة نفسها :

– لا شك ان جوزفين تملكها الرقاد الآن فلأقم .. وقبل ان تحرك ساكناً سمعت حركة من سرير شقيقتها واستطاعت ان ترى من بين اهدابها المتقاربة ان جوزفين قد نهضت من فراشها وبيدها رسالة جلست تطالعها على ضوء المصباح الذي رفعت نوره قليلاً .. امتلكت الدهشة راحيل على اثر هذه المباغتة ولكنها لم تبد حركة تشعر شقيقتها بانتباهها انما مكثت متظاهرة بالنوم على قدر المستطاع

قرأت جوزفين الرسالة بلهفة شديدة واعادت قراءتها ثانية وثالثة ثم تناولت قلماً وقرطاساً وأنشأت تكتب كتاباً لم تشك راحيل انه جواب الرسالة التي كانت تقرؤها شقيقتها

وارتمت جوزفين في فراشها ثانية بعد ان فرغت من عملها ثم مرت ثلاثون دقيقة حسبتها راحيل ثلاثين ساعة وبعد ان وثقت الصغرى من رقدة شقيقتها نهضت بدورها محترسة جد الاحتراس وانتشلت من تحت وسادة جوزفين رسالتيها كما ينتشل اللص شيئاً ثميناً ملقية نظرة سريعة على ما جاء فيهما واذ ذاك لم تتمالك نفسها من ان تقول بصوت عال :

– أيمكن ان يكون ذلك ؟ انها تحب عبد الغني شقيق جميل . رباه أشقيقتان تحبان شقيقين ؟ ومهما يكن من اطلاعي على هذا السر فلا أريد ان تطلع جوزفين على سري انا

وفضت الرسالة التي وردتها من حبيبها فطالعت فيها ما يلي مكتوباً بالتركية :

الاستانة ٣ شباط ١٨٩٦

عزيزتي راحيل !

لقد سألتني امس ونحن بين اهلك الكرام نسمع انغام الموسيقى في حديقة « التقسيم » سؤالاً تلعثم لساني عندما حاولت الاجابة عليه فعدلت .. لقد سألتني يا راحيل قائلة :

كيف تنظم الشعر يا جميل واي البواعث يولد في نفسك الشعور ؟

آه يا راحيل .. انني ما كنت لاظنك تجهلين هذا الامر ... او لا تتذكرين تلك الخفقات التي طالما اطربك بسماعها قلبي ونحن على قرب .. انها يا راحيل التقاسيم التي ازن بها ابيات شعري العربي

احبك يا راحيل حباً نقياً كجبينك الوضاح ، جميلا كخديك الورديين ، مطرباً كصوتك الموسيقي ، حباً خالداً ينير في زوايا الشقاء المظلمة باعثاً اياي على السعي والنشاط ..

احبك يا راحيل لانك جميلة او لا يكفي الحب والجمال لان يولدا في نفسي شعوراً ارق من النسيم ؟ اقبلك قبلة حارة ..!

والى الملتقى .. !

جميل الزهاوي

فرغت من قراءة الرسالة فطبعت عليها قبلة طويلة لم تقطعها الا على اثر شعورها بالدمع يترقرق في عينيها

وما لبثت ان كتبت ما يلي :

الى شاعر الحب والجمال

عزيزي جميل !

اجيبك على رسالتك وأنا دامعة العينين ... لا تأسف يا جميل على هذه الدموع التي اريقها الآن ! انها دموع السعادة ... دموع الحب ... احبتك لانك اهل لحبي ... ومع ان املي في هذا الحب ضعيف فانا لا اعدل عنه يا جميل فهل انت كذلك ؟

لقد وعدتني بان تترجم لي قصيدة « اغنية البوسفور » فمتى تبر بوعدك ... انها ملأى بالحب والجمال ... اذن فترجمها لي ناشدتك .. آه ناشدتك ماذا ؟.. ناشدتك آلهة الشعر التي تعينك على تلقي الوحي والالهام..

احبك يا جميل الى الابد

والى الملتقى القريب !!

راحيل

طوت الرسالة ودستها في ظرف صغير بديع وقبل ان تغادر مقعدها سمعت صوتاً ضعيفاً يقول :

« كلتانا اذن في الحب سواء ! »

أدارت وجهها مرتاعة فابصرت شقيقتها جوزفين منتصبة خلفها تبدو على ثغرها ابتسامة لطيفة ملؤها الحب والحنان ..

— او علمت شيئاً يا جوزفين ؟

— نعم يا عزيزتي .. لقد علمت كما علمت انت .. وقرأت رسالتيك

وأنا في موقفي هذا كما قرأت انت رسالتي .. فلا تجزعي يا راحيل .. كلتانا في الحب سواء ..!

وتعانقتا عناقاً طويلاً ساكناً لا يقلقه سوى ضربات قلبيهما العاشقين

***

وما فتيء جميل يزور العائلة اليهودية الاسبانية صحبة شقيقه عبد الغني كلما سنحت الفرصة حتى ارتفع للشقيقين وهما في غربتهما لواء الحب خفاقاً..

الغربة ووحدة النفس ، الشعر والجمال ، رقة الطبع ولطافة المعشر ، كرم الاصل ورصانة الاخلاق ، كل هذه صفات تجذب القلب الى القلب فيأنس احدهما الى الآخر فيمتزجان امتزاجاً لا انحلال بعده الا متى شاءت الظروف القاسية

احب جميل راحيل فاحبته ومال شقيقه عبد الغني الى شقيقتها جوزفين فمالت اليه ...

وما برحت آلهة الحب تسقي جميلا وراحيل من اكؤس الحب ما تريد حتى اصحتهما رجة عنيفة حطمت كأس السعادة وهو على شفتي هذا وتلك ...

***

قالت الام لابنتها مساء يوم جميل :

انك تبكين يا راحيل مثل طفلة لا تتجاوز الخامسة . ما هذه الدموع يا بنيتي ؟ كفكفيها واطردي الحزن ..

— انها دموع الحب يا اماه . المعذرة .. المعذرة لقد احببت جميلاً واحبني حباً منزهاً شعرياً

— دعي البكاء وتمتعي بذكراه يا راحيل

— كيف اتمتع .. اماه كيف اتمتع وهو الان في غياهب السجن حيث القته يد الظلم والاستبداد .. من يدري متى يقضون عليه .. اغداً ام بعد اسبوع ؟ !

وفيما الام تسكن روع ابنتها وهذه تسترسل في البكاء اذ دخل الوالد الكهل فلم تر الام بداً من اطلاعه على سير الحديث وكان يحمل نبأ مهماً عن جميل فقال :

لقد ابعد مخفوراً صديقنا جميل الليلة البارحة بعد ان ثبت اشتراكه مع الترك الاحرار

— والى اين وجهته ...

— الى وطنه بغداد على ألا يؤوب الى تركية ثانية

فرفعت راحيل عينيها قائلة بالم عميق :

ابعدوك الى بغداد ... فلترافقك السلامة .. ولكن اواه اين .. اين حبي ؟ . انهم ابعدوه كذلك .!!

مذكرات ضائعة

تشرين الثاني .....

بغداد في ١ منه : صدق ، لعمري ، من قال ان الدراهم ضماد الجروح وريحانة النفوس فأنا اليوم أشعر بسرور لا أشعر به في باقي ايام الشهر وكأني قد اصبحت أعلى منزلةً مما أنا فيه حقيقة .. وما ذلك كله الا لكون محفظتي ملأى بالاوراق النقدية التي تسلمتها أمس .. ان لذة اليوم انستني اتعاب الشهر باسرها .

الجمعة ٤ منه : ألا لعن الله الدائنين ، انهم ما انفكوا منذ يومين يقطعون علي الطريق ، لقد سددت ما للبعض منهم علي وصرفت الآخرين بالوعود . قد يمكنني تسديد الديون كلها ، لكنني لا اجازف في القيام بمثل هذه التجربة التي تغادرني فارغ الجيب ... لا ، ان ذلك لن يكون .

الاحد ٦ منه : كم مرة آليت على نفسي الا اشتري شيئاً ما لم ادفع ثمنه نقداً وكم اقسمت ان أسدد ديوني شهراً فشهراً . غير اني ما زلت على حالتي الاولى : اجمع علي الديون وأصرف اكثر الدائنين بالوعود . انها حالة قد مجتها نفسي ، سأحاول ان أتخلص منها في الشهر المقبل مهما

كلفني الامر من العسر الوقتي .

الاثنين ٧ مـ : النهار جميل منعش ... يبعث في النفس نشاطاً ... لقد ضربت و بعض الاصدقاء الكرام موعد سهرة تقتطف فيها زهور الانس في أحد مقاصف العاصمة ... انني انتظر المساء بفروغ صبر .

تعليق : (بعد منتصف الليل) الآن رجعت الى الدار بعد ان قضيت ، رفقة صديقين مخلصين ، ساعات اربعاً في (مقصف ولنكدن) انها ليلة من أسعد ليالي الحياة . لا أدري أي شيء يجعلني في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، أرى كل ما هو حولي باسماً وان يك جماداً ... لا أريد الرقاد قبل ان انقش في « مفكرتي » صوراً مما يرتسم في نفسي الآن ... ان حمرة الكونياك ما زالت تبهج ناظري ، وان طعمه ما زال في شفتي ... ايه لو دامت الحياة على هذا المنوال !! ان الناس قاطبة هم احبائي ... ما أرشق قوامها وما أوقع نظراتها في النفس ... انها كانت تخالسني النظر فتبسم لي وهي راقصة ... لم انس قولها وانا أقدم لها الكأس « انني أحبك » .

الثلاثاء ٨ مـ : بلغ مصروف الليلة البارحة ثلاثين ريبة لا غير . وقد اعتزمت اعادة الكرة هذا المساء .

تعليق (بعد منتصف الليل) : أصحيح انني غادرت المقصف ؟ ما أشد ما كان ارتياحي بقربها .. لقد استطعت ان أقبلها وأنا أراقصها ! هل

لحظ الناس يا ترى ما فعلت ؟ ولـكن ما ذا يهمني من أمرهم ! مـا انعم عنقها ... انه أرق ملمساً من الحرير ... تالله ان شفتي ما زالتا تتذوقان طعم القبلة ... لأرقد عاجلاً عساها تزورني في المنام .

الاربعاء ٩ منه : بلغ مصروف الليلة البارحة تسعاً وثلاثين ريبة وثماني آنات ... ولم يبق من راتب الشهر سوى ريبات قلائل .. !

الثلاثاء ١٥ منه : صعبة هي الحياة اذا كان الجيب فارغاً .. ان لوازمي كثيرة ولـكن كيف يتسنى لي الحصول عليها هذا الشهر . لا بد لي من شراء بدلة شتوية لائقة بي غير انني لا ادري أأرجىء شراءهـا الى الشهر القادم ام ... ؟!

الخميس ١٧ منه : لم اذهب الى الدائرة هـذا النهار لانني متوعك المزاج ... ما اصعب المـكوث في الدار .

الاحد ٢٠ منه : لقد اشتدت وطأة المرض وما عدت اتمـكن من تدوين مذكراتي الا بصعوبة .

الاثنين ٢١ منه : الاهل قلقون ... لا مناص من دعوة الطبيب ولـكن لا دراهم لدي ادفعها بدلاً عن عيادته

تعليق : (بعد الظهر) بعثت برسالة الى صديق راجياً فيهـا ان يسعفني بريبات عشر

تعليق : (بعد العصر) جاءت شقيقتي الصغرى تحمل رسالةً ظننتهـا

جواب الصديق .. ولكنني لدى فضها وجدتها لائحة طلب مرسلة الي من مخزن عيسى العمران .. آه ما اتعسني .

الاربعاء ٢٣ منه : اخذت اتماثل الى الشفاء فشكراً لله وحمداً لعنايته ...

السبت ٢٦ منه : ذهبت الى الدائرة ..

الثلاثاء ٢٩ منه : غداً اقبض الراتب . الا ليت عقرب الساعة يسرع في دورانه وليت الدائنين يصابون بفقدان الذاكرة .

***

هذه صفحات مفكرة موظف اجهله عثرت عليها صدفة فآثرت نشرها مخافة ان تضيع مني كذلك !!

بغداد بعد الطوفان

* قال احد الاصدقاء ونحن نعبر جسر نهر دجلة قبل بضعة ايام :

— ارى نهر دجلة ساخطاً علينا ، يهددنا بزمجرته هذه فلا غرابة اذا كنا قلقين من هذا الفيضان الكبير .

فاجبته :

— لا ارى ثمة داع الى القلق فدجلة قد عودتنا على هذه المظاهر الارهابية التي تفاجئنا بها بين العام والآخر . ولا اخال النهر الا منخفضاً في وقت قصير .

وبلغ بنا السير الى الشارع العام ونحن لا ننفك نتحدث عن امر هذه الزيادة وعن امكان فيضان دجلة على الحقول والمزارع وايقاعها الاضرار الجسيمة ، وقد كان يمازج هذا القلق شيء من الاستياء لعدم تمكن الحكومة من الاستفادة من هذه المياه الوافرة المباركة بخزنها في خزانات تصنع خصيصاً لهذا الغرض .

ومضى كل منا الى داره ولا ادري ، مع اني كنت قليل الحذر ، لماذا هجمت علي التخيلات والاحتمالات بحيث لم استطع الرقاد الا بعد جهد جهيد .

---

* كتبت هذه القصة اثناء الفيضان الاخير

وحملني الكرى الى عالم الاحلام فاذا بي اراني ثانية في النادي الذي كنت فيه مساء برفقة الاصحاب ، واذا باصدقائي انفسهم ملتفون حولي يتحادثون عن امر دجلة فيعلن كل منهم هواجسه وتخوفاته

وكنا ونحن في هذا النادي المطل على النهر نتطلع الى صدر النهر فنراه مضطرباً اضطراباً هائلا ، متدفقاً تدفقاً سريعاً مما اولد الرعب في نفوسنا .

— هيا نرجع الى بيوتنا عاجلا ، قال احد الاصدقاء بصوت مضطرب ، فاني متشائم جداً هذا المساء .

ولم يتم كلامه حتى لطمت موجة كبيرة نوافذ النادي فكسرت الزجاج وملأت البهو فما كان منا الى ان هرولنا مسرعين باقدام يكاد يوقفها الرعب

وكان علينا ان نعبر جسر مود الى جانب الرصافة فابصرت الاصحاب مترددين فاقدمت مشجعاً اياهم .

ولم تكد تطوء ارجلنا جانب الرصافة حتى سمعنا ضجيجاً هائلا بلغ عنان السماء واصواتاً تنادي : — الغريق .. الغريق .. ! ولا تسل عما حاق بي من ذعر عندما ابصرت ، وانا في الشارع العام ، ان الماء تحت قدمي وانه آخذ بالارتفاع .

***

بعد نصف ساعة كنت مترنحاً على خشبة عريضة اعوم بها على سطح لماء الهائج ، وكان القنوط قد اخذ مني مأخذه غير ان الجرأة ما كانت

لتفارقني آنذاك فادرت وجهي حوالي فلم ابصر سوى السماء والماء وكانت اسراب من الطيور تهيم في عرض الفضاء مقتربة الى سطح الماء تارة، محلقة الى العلو طوراً

— رباه اين بغداد ؟ اين اصدقائي الاعزاء ؟ اين اهلي ؟ اين احبائي ؟

وارهفت اذني فلم اسمع سوى ضجيج الماء يمزق نياط القلب وما لبثت ان شعرت ان الخشبة التي اتخذتها زورقاً للنجاة اخذت تتفسخ لرقتها وقدمها فهالني الامر غير اني تجلدت واخذت اسبح بكل قواي ولكني لم اكن ادري الى اية ناحية اتوجه !

سبحت ساعات اطول من سنوات، فارتخت اعصابي، وكلت عضلاتي، وما عدت اقوى على النظر ولكنني ما زلت اتذكر ان آخر ما وقع بصري عليه اشعة الشمس التي كانت قد اذنت بالمغيب

غمرتني المياه الصاخبة وما عدت اشعر بشيء

***

لا اتذكر من اي بلد من بلدان العراق كان قدومي، وربما كان ذلك من الموصل، غير انني اتذكر جيدا انني كنت قاصداً بغداد وقد بلغتها في قطار الاكسبريس الساعة الخامسة زوالية مساء.

ولكن بغداد التي اراها هذه المرة غير بغداد التي قضيت فيها حياتي، متنقلا في ازقتها الضيقة وشوارعها اللا منتظمة، فهئذا ارى الآن جادات واسعة، وبنايات فخمة تحيط بها الحدائق الصغار وهئذا ارى الشجيرات

تزين جانبي كل شارع من شوارعها .

و كنت احس بقشعريرة تسري بين لحظة واخرى في مفاصلي فاحسب ان ملابسي مبللة بالماء فاتلمسها فلا ارى اثراً لذلك

وابصرت في الساحة الكبرى عند مدخل العاصمة نصباً قائما يمثل شخصا مهيب الطلعة مرتفع القامة ، ممتشقاً سيفاً لامعاً فدنوت اتفرس في وجهه عن كثب فتأكدت انني لم ار هذا الشخص من قبل .

— من هذا الرجل العظيم الخالد يا ترى ؟

وفيما كنت اسائل نفسي هذا السؤال اذ وقع بصري على كتابة هي آية في الابداع نقشت على هذا النصب تحت تمثال الشخص فاخذت اقرؤ :

النصب التذكاري

لمنقذ البلاد العراقية

وقبل ان يقع نظري على اسم الشخص المخلد دنا الي شرطي طويل القامة ضخم الجثة ورجاني ان اغادر محلي خشية ان يشتد الازدحام واذ كنت شارد البال غادرت موقفي متطلعا الى اليمين تارة والى الشمال طورا

و كان الوقت وقت نزهة ولذا كان الشارع الكبير مائجاً بالمتنزهين والمتنزهات وقد لفت نظري الهدوء السائد ، رغم كثرة الخلق ، ووحدة الملابس وبهجة الاشكال فهنا صديق يحادث صديقه وهناك فتاة تبسم لحبيبها المتأبط ذراعها وهنالك والد يدفع عربة ولديه الصغيرين و كانت رائحة الازهار تعبق الفضاء فينشرح لها الصدر انشراحا وعلى طريقي

مررت بعدة اماكن بارزة منها : المجمع العلمي – دار الفنون الجميلة – مسرح المأمون – اوبرا ابي نؤاس – المكتبة الكبرى – وغير ذلك من العمارات الشاهقة التي لا اتخطرها الان .

وقطعت قسما من الشارع الكبير وما لبثت ان وقفت متسائلا :

– ألم يكن هنا اوتيل وجسر مود ؟

وعبثا حاولت العثور على مطلوبي انما وقع نظري على جسر فخم كتب على مدخله :

جسر بغداد الجديدة

وفيما انا ارنو الى الجسر اذ دنا الي صبي عرفت للفور انه من باعة الصحف فسمعته ينادي :

الحاصد المسائي .. الحاصد المسائي .. فناولته آنتين ليبيعني نسخة فنظر الي نظرة هزء وغضب قائلا :

– ما هذا الاثر العتيق ؟ أهازل انت ام جاد ؟

فاستغربت كلامه وقلت :

وهل هناك عملة غير هذه العملة ؟ ولكن البائع لم ينتظر حتى يسمع كلامي انما عاود سيره مهرولا .

وامسى المساء فصادف مروري بدار الاعلان الليلي فوقفت اتفرج مع المتفرجين على الاعلانات الضوئية التي يعلنها هذا المحل في الفضاء وكان الاعلان الاول – على ما اتذكر – لفت نظر الجمهور الى رواية تمثيلية

كبرى تمثل على مسرح المأمون بابداع فني وعنوانها :

كيف مرر العراق

فشعرت بميل شديد الى مشاهدة هذا التمثيل ولذا اعتزمت الرجوع الى مسرح المأمون الذي كنت قد مررت به قبل نصف ساعة . هل شاهدت التمثيل ؟ لا اتذكر جيداً لما اضواء دار التمثيل ما زالت تشع امام بصري ذلك الاشعاع القوي

***

واستيقظت من الرقاد صباحاً ومشاهد هذا الحلم الهائل مبدؤه الرائع منتهاه ما زالت مرتسمة في مخيلتي واول عمل اتيته كان تناولي صحيفة « العراق » لاطالع اخبار فيضان دجلة . ولقد سرني ان اعلم ان النهر آخذ بالانخفاض .

سُكر فجنون

كنت اسير وصديقاً لي في شارع جديد حسن باشا ، عندما وقعت انظارنا على رجل رث الثياب ،حاسر الرأس ، حافي القدمين ،يركض وراء زمرة من الصبيان وهو يرشقهم بالحجارة ، وكان الصبيان كلما ابتعدوا عن هذا الرجل فأمنوا وصول الحجارة اليهم نكصوا قليلاً وأخذوا يصيحون بملء اشداقهم :

— هذا هو المخبل ... هذا هو المخبل

مشيرين باصابعهم اليه ، غير ملتفتين الى سبه وشتمه او الى كفره المتواصل .

— مسكين انه مجنون .. وبرغم جنونه فهو لم يتخلص من عداء البشر

قلت هذا ملتفتاً الى صاحبي فادهشتني منه حسرة لحظتها وان حاول كتمانها

— انك تتحسر يا أخي ..

— نعم .. اتحسر .. ويحق لي هذا التحسر لانني أعلم عن هذا المجنون اشياء لا يعلمها سواي

— ومتى اتصل بك العلم بهذه الامور ؟

— اتصل بي ذلك عندما كان هذا الرجل المجنون شاباً عاملاً وبعد ان

اصبح زوجاً خاملاً ، وايام جنونه هذا الذي ترى اعراضه بعينيك

صرنا في الشارع العام مولين وجهينا شطر الباب الشرقي للتنزه قليلاً فالحجت على صاحبي بان يقص علي ، ونحن نتمشى منفردين ، ما يعلمه عن هذا الشخص المعتوه فلم ير مناصاً من تلبية طلبي فقال :

قبل عشر و بضع سنوات عرفت هذا الشخص رجلاً من متوسطي الحال ، يحصل على خبزه بعرق جبينه ، ولم يمر زمن على معرفتي اياه حتى آلمني كثيراً ما كنت اسمعه عنه من اخبار السكر ووقائعه العديدة في الخمارات

تزوج فكان زواجه فاتحة شقاء لزوجة طاهرة الذيل ولابن رزقهما اياه الطبيعة بعد سنة من زواجهما ... وكانت الزوجة تنصح زوجها بالعدول عن شرب الخمرة محذرةً اياه من عواقبها الوخيمة فكان يعدها بالايجاب غير انه لا يلبث ان يدخل البيت مساء اليوم التالي وهو يترنح ذات اليمين وذات اليسار

— احضري العشاء يا ملعونة بنت الملعون ..

فتحضر زوجته العشاء و بعد ان يتفقده يرفع نظره الزائغ الى زوجته قائلاً :

— واين الثلج ... اني لا ارى الثلج في المرق ..

— واي ثلج تريد ان اضع في المرق في هذه الليلة الشديدة البرد ... اف من السكر ... انك لا تتركه حتى تميتنا جميعاً ...

اسكتي يا كلبة بنت الكلب .. يا .. فاجرة .. اتحقرين زوجك . . . اتحقرين اغاتك . . . ؟

وقبل أن تجيب بكلمة يتناول الزوج السكير صحن الطعام ويرمي زوجته به فتمضي الى غرفتها صارخةً باكية . . .

هذه صفحة من صفحات الحياة الزوجية التي كان يحياها هذا الشخص وليلة من ليالي الشقاء الذي طالما تجرع صفاره ممتزجاً ببياض « عرق المستكي »

— لقد اثرت لواعجي ايها الصديق ومع ذلك فاتمم بالله حديثك

فاردف صاحبي :

ومرت الشهور على الحال التي ذكرناها فكان الزوجان خلالها يتجرعان العلقم وما لبث ان نما ولدهما فاصبح لائقاً لحضور المدرسة ، ولكن اية ملابس يرتدي ، واية كتب يحمل ليقتدي برفاقه التلامذة ؟

بقي الطفل تارة يلازم عقر الدار ، واخرى يلعب على قارعة الطريق حيث يترعرع في الاوحال بعيداً عن دور التعليم والتهذيب . . . من ذا يقوم بتربيته ؟ اوالده السكير ام امه العاجزة ام مجتمعه الذي انت ادرى به . . . ؟

وفي احد الايام اعترى الاب مرض على اثر سكرة شديدة ، وما برح المرض يحتل مواطن الضعف في جسمه ، حتى أصبح يعاني الامرين من اهواله . . . حمى عنيفة ، ارتباك معدوي ، نوبات عصبية ، كل هذا شيء يسير من الاوجاع التي كانت تنتابه وهو طريح الفراش !

واخذ يتماثل الى الشفاء جسداً ، ولـكنه كان يدنو من هوة السقوط عقلاً ... ان ذلك المرض قد كلفه ضياع شعوره

– مسكين !

– اجل مسكين، قال صاحبي، فانه جن جنوناً لم يبرأ منه حتى اليوم ولا اظنه سيتخلص من براثنه يوماً من الايام ... فهل من غرابة اذا ما رأيتني اتحسر لدى رؤيتي هذا الشخص يتشرد من زقـاق الى زقاق ، وهو والصبية الجهلة في اخذ ورد وشتم وقذف

وهنا سألت صاحبي :

وماذا حدث من أمر الزوجة وولدها ... ؟

الزوجة تخدم احدى العائلات أما الابن فقد رأيته ذات يوم – على ما اتذكر – يصبغ الاحذية في مقاهي بغداد . أليست هذه الامور عبرة ثمينة ؟

فاجبت صديقي بنبرة الحزين :

– اجل انها عبرة ثمينة ولـكن لمن يعتبر !

نفنوف العيد

لا اتذكر العيد الذي حدثت فيه وقائع هذه القصة انما سير حوادثها ما زال مسطوراً على ذاكرتي لا يمحوه مرور الايام وكثيراً ما يوشك الفكر ان يتناسى هذه المأساة التي لم يعرف احد منشأها غير ان الاعياد المتوالية بين آن وآخر تجدد ذكراها وتذكي جمرتها فيغشى فؤادي ألم عميق

***

ابنة تتراوح بين الثامنة والتاسعة ألفت امها تبسم لها فقالت :

— متى يكون العيد يا اماه . أغداً ام بعد غد ؟

— بعد يومين يا بنيتي

— وافرحتاه .. لقد قرب العيد وهل اشتريت لي « النفنوف » الذي وعدتني به منذ العيد الماضي . ؟

وهنا بدت ملامح الكآبة على وجه الام لكنها لم تستطع التخلص من اجابة ابنتها فقالت :

— نعم لقد اشتريته لك وهو عند الخياطة

فعم الاستبشار وجنتي الفتاة وذهبت لتنام

انزوت الام في غرفتها حزينةً ، مطرقة الرأس ، شاعرة بوخزات في صدرها ، عالمة ان هذا العيد الذي يحل بعد يومين قد حمل اليها التعاسة

والدمع لا السعادة والابتسام . ان زوجها – وهو مباشر في احدى الدوائر – يتقاضى راتباً يكاد لا يسد احتياجاتهما من مأكل ومشرب واجرة مسكن وغير ذلك من الضروريات . وكلما تذكرت ابنتها العزيزة تطالبها بنفنوف العيد احست بالدمع يبلل وجنتيها حاراً لانها تعلم علم اليقين ان زوجها لم يتمكن من ادخار حتى ولا آنة واحدة لصرفها في العيد المبارك

وخطر لها خاطر انست اليه آملة من وراء تحقيقه بلوغ المراد واذ وافى زوجها واستقر به المقام فاتحته قائلة :

لابد من شراء نفنوف جميل لابنتنا . . فهي موعودة به منذ ثلاثة اعياد . انا لا اريد ان ترى بنات حارتها يخطرن صباح العيد بالملابس الملونة وهي مرتدية خرقاً بالية تشمئز منها النفوس

فقاطعها زوجها قائلاً :

– ولكن قلت لك مراراً ان لا فلس عندي !

فعرضت على زوجها ما جال في فكرها في سبيل الحصول على بضع ربيات تشتري بها نفنوفا وحذاء لابنتها قائلة انها ستذهب غداً فتنتظر ذلك الغني الكبير (س . . .) على عتبة داره ومتى رأته ذاهباً او راجعاً ارتمت على اقدامه وتوسلت اليه بان يجود عليها بمناسبة العيد بشيء مما رزقه الله

غير ان زوجها قال لها :

— انا لا اريد منعك من القيام بهذه التجربة وانني اتذكر جيداً كم قد كنست بيته وحديقته عند ما كنت تترددين على عائلته .. ومع هذا كله فانا ضعيف الامل في النجاح

***

وفي اليوم التالي صباحاً غادر المثري بيته وما كاد يخطو بضع خطوات حتى ابصر امرأة من سواد الشعب ترتمي على اقدامه قائلة :

رحماك ... رحماك ... يا ابن الكرام ... لقد حل العيد ونحن لا نملك شيئاً يعيننا على قضائه بهناء ... رحماك ارأف بنا

وكان خادمه يسير وراءه فالتفت اليه قائلاً بضجر :

— اعطها فلسين وأرحنا ...

فلما سمعت المرأة ما فاه به الرجل قالت بوجع شديد :

— فلسين ...!

وكان الخادم قد رمى القطعة على قدميها ولحق مولاه فرجعت الى بيتها شاعرة في اعماقها بمثل نار آكلة ، دون ان تلتقط ما جاد به عليها ذلك الرجل الذي عقدت عليه املها العظيم

وانبأت زوجها بجلية الخبر فلم تأخذه الدهشة لانه يعلم مقدار ما بلغت اليه القلوب من صلادة وقسوة

وتذكر الزوج ان في الغرفة الصغيرة ملابس عتيقة لابنهما الذي ضمه القبر منذ سنتين ، كانا يحتفظان بها ذكرى يقدسانها فرأى ان يبيع هذه

الملابس عساها تأتي له بما يمكنه من شراء نفنوف لابنته

***

غادر الاب بيته عصراً ، كذلك الام تركته بعد ان ارسلت ابنتها تلعب في بيت جارتهم ومضى كل منهما في قصد يجهله الآخر

باع الاب الملابس العتيقة بربيتين فرأى ان الربيتين لا تكفيان للحصول على المطلوب لذلك لم يربدا من عرض خاتمه الفضي المحتفظ به من عهد خطبته فباعه بمبلغ زهيد ورجع الى البيت حاملا الامنية المنشودة يدفعه الالم الممزوج بشيء من الانتعاش

وعند ما كان الزوج في طريقه الى الدار كانت الزوجة تقوم بتجربة ثانية لم تعرضها على زوجها انما كان لها عظيم الامل في نجاحها

وقفت على احد حوانيت البزازين تجيل الطرف فيما عرضه صاحب الحانوت من اقمشة قطنية وحريرية وملابس مهيأة وغير ذلك مما يبهر العين جماله . .

وكانت النسوة متجمهرات على صاحب الحانوت ، هذه تساومه وتلك تدفع له نقوداً واخرى تطلب ان يعطيها القطعة الحمراء المعلقة فلحظت صاحبتنا ان رب الحانوت مشغول فكره وان الفرصة سانحة لسرقة قطعة صغيرة من القماش كانت موضوعة على حدة .. تطلعت جيداً فابصرت النساء منشغلات في امورهن فتناولت القطعة بيد مرتجفة ودستها تحت عباءتها ومضت لا تلوي على شيء

وكان بالقرب من البزاز ولد صغير شاهد ما أتته المرأة فاسرع منبهاً صاحب المال فاخذ الاخير يرغي ويزبد صارخاً :

— امسكوها .. لقد سرقت مالي .. امسكوها . !

***

بلغ الاب مسكنه فطرق الباب فلم يسمع مجيباً ... واعاد طرقه ولكن على غير جدوى وفيما كان يؤول غياب زوجته مرتبكاً اذ رأى احدى جاراتهم تهرول مقبلة نحوه وهي بادية الاضطراب

— ما وراءك من الاخبار ؟

فقصت عليه بلسان متلعثم ما حدث لزوجته في سوق البزازين واضافت:

— انها الآن موقوفة في دائرة الشرطة !

***

اشرقت شمس العيد باسمةً وارتدت البنت نفنوفاً اشتراه لها ابوها ولكن الام كانت موقوفة في سجن « مركز السراي » لترى المحكمة قضيتها بعد العيد السعيد . . . !

لكي تكون عظيماً

لا اخال ان هناك احداً سواي اطلع على تفاصيل ما احاط من الالام بذلك الشاب المؤلف الذي فتح عينيه وقلبه وفكره لهذه الحياة وما فيها من خير وشر، انبساط وانقباض، علو وهبوط ـ ذلك الفتى الذي فتح نوافذ نفسه للامال الكبيرة والاماني الذهبية، وشرع في خدمة المجتمع ولكنه الفى نفسه امام عاصفة هوجاء من عواصف الخيبة توشك ان تقصف غصون امله الشهي! ما اشد بؤس الفتى اذا اراد ان يعمل ويتقدم فتعترضه العقبات من كل جانب

لقد وضع « س » وهو شاب في الرابعة والعشرين من سنيه مؤلفاً ادبياً اخلاقياً اجتماعياً بعنوان (لكي تكون عظيماً) توخى فيه غزارة المادة وايجاز البحوث، باسطاً باسلوب سهل ممتنع اهم العوامل الاخلاقية والادبية والاجتماعية والنفسية التي تكشف للنفس البشرية طريق الحياة الواضحة فيتمكن المرء بقوة ارادته ورصانة خلقه ودراية فكره من التقدم رويداً رويداً حتى يبلغ تلك الامنية الثمينة التي كثيراً ما تحن اليها النفوس، تلك الصفة الكثير عشاقها، القليل حائزوها تلك التي يسميها الناس « العظمة »

وقد بذل « س » عناية كبرى في تنسيق مؤلفه الموجز، فكان بعد

ان فرغ من تبييضه يطالعه منفرداً بصوت مرتفع فيطرب سمعه ويرقص قلبه ويوشك الا يصدق انه واضع هذا الكتاب

– الا كم سيكون اعجاب القراء بكتابي عظيما عظيما . انه الثمرة الاولى ومع ذلك فما اينعه واشهاه . ايمكن ان يكون اقل قيمة مما اتصور ؟ لا ادري وربما يكون الغرور ، غرور الصبا هو الذي يجعلني معجباً بنتاج قريحتي

ولا يلبث ان يفتح الكتاب ويقرؤ على غير تعيين :

«... ومن الجهل ان يحسب الناس ان للعظمة مواطن خاصة تنبت فيها او انها مقتصرة على طبقة دون اخرى من طبقات الشعب ، كما انه من الحمق ان تتخذ الغنى والسيطرة والنفوذ مقاييس للعظمة اذ ان الغنى والسيطرة والنفوذ مزالق تحيد بنا عن تعرف العظمة الحقيقية . وانه ليخلق بالمرء ان يميز دائما بين العظمة الحقيقية الخالدة التي يصلها ذوو النفوس الكبيرة بجدهم ونشاطهم ومعرفتهم واخلاقهم وبين العظمة الكاذبة الجوفاء القصيرة العمر التي قد يصلها المرء بما في حوزته من مال او جاه او منصب »

– يصل « س » في مطالعته الى هنا فيغلق كتابه ويطرق قليلا ثم يقول بصوت منخفض :

– ليست هذه القطعة من قطع الكتاب الممتازة ومع ذلك فهي مما لا يستهان به

* * *

— قلت لك يا عزيزي انه لا يسعني طبع هذا الكتاب على نفقة مكتبتي واكرر ذلك الآن وان نصيحتي لك ان تحفظه الآن حتى يسنح الوقت لطبعه ولا تتعب نفسك بمراجعة اصحاب المكتبات الاخرى في بغداد .

فاجاب « س » :

— ولكن الكتاب موجز نفيس ومما لا ريب فيه ان الاقبال سيكون عظيما عليه .

— هذا ما تعتقده انت ويعتقده كل اديب في هذه البلاد في موقف مثل هذا ولكننا نحن الكتبيين نعرف جيداً عاقبة الاقدام على مثل هذه المشاريع الادبية .

فاجابه الفتى وقد اخذ منه الحماس مأخذه :

— ان القراء كثيرون واصدقائي الاخصاء لا يحصى لهم عدد فاذا فرضنا ان كلاً منهم يبتاع نسخة واحدة من الكتاب فسوف تنفد الطبعة الاولى في بضعة ايام

— مسكين انت يا صاح . اجل مسكين انت — واطلب المعذرة اذا خاطبتك بمثل هذه الصراحة — ان هؤلاء القراء الذين تعرفهم واولئك الاصدقاء الذين تعقد عليهم اكبر الآمال سوف لا يعرف واحد منهم واجبه بعد ان يتم طبع الكتاب ويظهر للوجود — سوف يضنون بشراء نسخة واحدة ولو كانت زهيدة الثمن ، انهم سوف يسخرون من اقدامك

ويهزؤون بمعرفتك التي ضمنتها كتابك ، انهم سوف يقلبون لك شفاههم اي وربي انهم سوف يسخرون

— ولم كل ذلك ؟ انك قد اطرت رشدي !

فاجابه الكتبي بنبرة رزينة :

— ذلك لانك واحد من ابناء وطنهم !

رجع « س » الى بيته حزيناً كئيباً متعثراً يلمس بيده خيبته الاولى .

***

وخطر على « س » خاطر جميل كان كوميض البرق في ظلمات الليل فارتاح له قلبه قليلاً واخذ يحادث نفسه قائلاً :

— اجل سأزور « ابا سعيد » في داره غداً وسأفاتحه بامر كتابي . انه رجل ذو قلب كريم وخلق رضي فلا شك انه سيشجعني التشجيع الفائق فيضمد جراح نفسي .. الى الغد اجل الى الغد

وفي اليوم التالي قصد « س » دار « ابي سعيد » وابو سعيد هذا غني ومن كبار الاغنياء له ماله من الخدم والحشم والاملاك والاموال مما جعل له مقاماً سامياً بين الناس . وكان « س » يتردد على « ابي سعيد » فيلاقي منه من البشاشة ما افضى به الى زيارته ومفاتحته بامر كتابه بعد توطئة قصيرة .

— وهل انت مصر على طبع الكتاب يا ولدي ؟

— اجل يا سيدي فانا فتى في ريعان الشباب اطمح الى ان ارى الناس ينظرون الي نظر التجلة والاحترام والحب واذا لم اعجل اليوم

بنشر مؤلفي هذا الا يكون هذا التماهل عقبة في سبيل تقدمي. آه يا سيدي انك لو تعلم الامال الكبيرة التي تختلج في فكري اذن لعذرتني على اصراري هذا .

— وما رأي والدك في هذا الشأن ؟

— مهما يكن من رأيه فلا فائدة لي منه . انه كما تعلم رجل فقير لا عمل له ، يكاد يصعب عليه سد نفقات دراستي العالية . فكر ياسيدي في هذا الامر عسى ان تنعش روحا ظمأى الى العظمة الانسانية

فاجابه الغني بعد اطراق وتفكير :

— اني اقترح عليك ان تؤجل طبع هذا الكتاب ريثما يتسنى لك العمل والحصول على مال يسهل لك القيام بمشاريعك الادبية

وهنا شعر «س» بثقل شديد هوى على فكره وقلبه ولكنه تجلد وقال:

— ماذا تقول يا سيدي ؟

— اقول ان اوان طبع كتابك هذا لم يحن فاصبر قليلا فالحكمة تقول « ان من صبر ظفر »

— صدقت يا سيدي ولقد كنت مخطئا كثيرا نعم كنت سخيف الراي استودعك الله يا سيدي ..

قال « س » ذلك بنبرة مضطربة وحدة ظاهرة ثم هرول تاركا ابا سعيد في استغراب

— على رسلك ، .. ولكن « س » كان قد اصبح خارج الدار فضاعت كلمات ابي سعيد ادراج الرياح

دخل « س » غرفته وهو يشعر بغشاوة تحول دونه ودون رؤية الاشياء و بنار تتأجج في صدره فاقتعد كرسيه واخذ يستعرض احلامه وآماله المضرجة بدماء الخيبة . لقد كان يعقد اكبر الاماني على صداقة ابي سعيد فاذا بابي سعيد يصفعه هذه الصفعة النكراء واذا بقصور احلامه الذهبية تنهار تحت اقدامه . فاسودت الدنيا في عينيه ودارت به الارض الفضاء ثم انتصب هائجاً مرتبكاً واخذ يقطع الغرفة جيئةً وذهاباً بخطوات غير موزونة.

— وا أسفاه اهذا ما يرجوه شاب مثلي من نعم الحياة

قال ذلك بنبرة اليمة واخرج من جيبه مسودات كتابه « لكي تكون عظيما » وطفق يمزقها تمزيقاً

وصادف ، وهو يمزق الاوراق ، ان استوقفت نظره الفقرة الاخيرة من الصحيفة السبعين فقرأ :

« ومن الحمق ان يحلم المرء بان يكون عظيما اذا لم يكن في نفسه من العزم والثبات والمثابرة ما يولد فيه العظمة الحقة »

فرغ « س » من مطالعة هذه الفقرة فانجابت من امام عينيه تلك الغمامة السوداء التي كانت تغشيهما ، غمامة القنوط فاخذ يقول في نفسه :

— العزم والثبات والمثابرة اجل انها السلالم المؤدية الى ذروة العظمة فعلام الجبن وعلام اليأس . من يدري ماذا سيحمل لي الغد ؟

وانبسطت اسارير « س » شيئاً فشيئاً وعاد اليه روعه فاسرع يلتقط الاوراق الممزقة وتناول قنينة الصمغ لالصاقها بعضها والاحتفاظ بها كاعز شي لديه!

كمال والنيابة

* لشقيقتي ابن يدعى « كمالاً » يتراوح بين الخامسة والسادسة من سنيه وهو ، على صغره ، بارز الذكاء ، حاد الفطنة ، ينازعك في سبيل شؤونه الصبيانية حتى يحوز قصب السبق والا فالحرب بينكما سجال

احب كمالاً كثيراً وربما تكون محبته لي اكثر وقد اعتدت ان القنه بعض الالفاظ العربية الفصحى لأطبعه على حب هذه اللغة الواسعة الكريمة فكان في هذا الباب تلميذاً ماهراً يتلقف الشاردة والواردة ...

ما انقى جبينه وما أطهر قلبه .. ! بل ما الطف ابتسامته الصادقة التي تعبر عن شعور لا تشوبه الخدعة ولا يدنسه التمويه

انه صبي ... لم يعرف بعد ما هو المكر والخداع والحسد والنفاق والبغضاء والنميمة ، صادق في حركاته ، صادق في سكناته . اذا اغضبته في امر ما أعلن غضبه وان اضطررته الى اكثر من ذلك قال لي بسخط : « انا لا احبك »

الا رعاك الله يا عهد الطفولة انك هبة نسيم من فردوس الله المقدس.. وانت ايها الطفل العزيز حبذا لو كان باستطاعتك ان تتزين ، ابداً ، بصراحتك فان احببت في المستقبل شخصاً او شيئاً اعلنت حبك وان

---

* كتبت هذه القصة اثناء الانتخابات النيابية لسنة ١٩٢٨

كرهتهما اعلنت كراهتك غير متنزل الى مجاراة المجتمع في اظهار ما لم تضمر رهبةً من امر او رغبةً منك اليه ...

***

لحظ كمال في الايام الاخيرة ان حديثاً متمادياً غير اعتيادي ما انفك يدور بين افراد الاسرة كلما انتظم عقد شملهم والكلمات التي استلفتت نظره بصورة خاصة وحلت من دماغه الصغير اوسع محل هي : نيابة ... نائب ... انتخاب ... شعب ..

فكان يتصيد الفرص ليفهم عن هذه الامور شيئاً يبرد غلته

وصادف، ليلة الاربعاء الماضية ، انني تناولت العشاء في دار كمال، فكان الصبي لا يبرح جالساً الى جانبي . اداعبه فتعلو قهقهته في القاعة باعثة السرور والآمال في نفوس ابويه واخواله .. ودار حديث النيابة مرة اخرى فكان كمال ينصت بكل جوارحه ومما سمعه هذه المحاورات :

— النيابة يجب ان يمثل فيها الشعب تمثيلاً حقاً

— يجب ان نحكم ضمائرنا ونتذكر احوال بلادنا الراهنة لدى الانتخاب

— من اصبح نائباً وهو غير اهل للنيابة فقد وقف حجر عثرة في سبيل الامة

— السيادة للامة والامة فوق كل شخص . وهي لها ملايين العيون .. ولئن كانت اغلبية هذه العيون مستسلمة الى الرقاد ، مغلقة ،فهي ستفتح حتماً اذا ما اشتدت حرارة النهضة وحاولت أشعة الاستقلال

والحرية ان تنفذ الاجفان

وفيما نحن نبدي شتى الآراء حول الانتخابات الحاضرة قطع علينا الحديث كمال بقوله باكياً :

انا لا احبكم ... انا لا احبكم ... لماذا لا تقولون لى ما هي « النيابة » لماذا لا تفرجونني عليها ؛ فضحكنا جميعاً ضحكاً عالياً لسذاجة كمال غير اننا خشينا اثارة غضبه بهذا الضحك فانتدبني الحضور لافسر لكمال ما هي « النيابة » فخاطبته قائلاً بتودد بعد ان طبعت قبلة على جبينه الناصع :

— تريد ان تعرف ما هي النيابة يا كمال ؟

— نعم .. خالي .. اريد

— « النيابة » حديقة قريبة من بغداد يا كمال . حديقة فيها اشجار التفاح والعنب والمشمش وفيها ازهار جميلة وطيور وبلابل تغني دائماً ...

— وافرحتاه ... وافرحتاه ... اريد ان تأخذني للنيابة

— اسمع يا كمال .. يجب الا تقطع حديثي .. وهذه الحديقة واسعة جداً لا يدخلها غير الرجال الذين لا يقل عمرهم عن عمر « بابا »

— « بابا » ياخذنا انا واياك لنتفرج ...

— قلت لك اسمع يا كمال ... والرجل الذي يدخل هذه الحديقة يجب ان يدخل وحده ويجب ان يكون عاقلاً ... عالماً ... يعرفه ناس كثيرون ويحبونه ويحترمونه ..

— واذا دخل هذا الرجل وقطف من العنب أيأكله ام يبيعه ؟

— لا يا عزيزي انه لا يأكله ولا يبيعه انما يقدمه لاصحاب الحديقة وهم أفراد عائلة شريفة تسمى « عائلة الامة »

— وقطف الازهار ؟

— قطف الازهار كذلك .. واذا رأت الامة ان الاشواك قد ادمت اصابع ذلك الرجل الذي قدم لها الازهار فهي تهديه أجمل زهرة ليضعها على صدره ...

— ها .. ها .. انا أريد ان اذهب .. اريد ان اتفرج ..

— لا يمكنك ذلك قبل ان يبلغ عمرك الثلاثين سنة

— اقول ان عمري بالغ ثلاثين سنة وادخل مع الداخلين

فقهقه الجميع عالياً وقهقه كمال بدوره

— يجب ان تدرس يا كمال وتحصل على رضى اهلك ومدرسيك ... يجب ان تكون عالماً كبيراً ومحباً للناس محبوباً منهم لتدخل مع الداخلين

فاجاب كمال : عجباً هل يمكن احد الناس غير الصالحين ان يدخل بحيلة من الحيل او يطفر من فوق الحائط .؟

اذهب للمنام يا كمال . الساعة الثامنة والنصف

— لا انام « وراس بابا » لا انام .. حتى تجيبني على سؤالي

فلم أر مناصاً من الاجابة

— نعم قد يتمكن بعضهم من الدخول بالصورة التي ذكرتها ولكن الامة تطلع على حقيقتهم في وقت قصير

– وماذا تعمل لهم الامة ؟

ماذا تعمل لهم الامة ؟ تكرههم كرهاً شديداً وتراقب اعمالهم فاذا لم ترتح اليها تناقشهم الحساب .. افهمت يا كمال ؟

– نعم يا خالي اشكرك فهمت أحسن من الليلة البارحة ... وسأكون رجلاً عاقلاً عالماً احب الناس ليحبوني وعندما يصل عمري الى الثلاثين سنة سأطلب منك ان تأخذني الى حديقة النيابة ..

– ولكنك عند ذاك سيمكنك الذهاب وحدك

فبدت امارات السرور والانشراح على محيا الصبي فمضى يعدو الى غرفة منامه بعد ان استفسر عن سنه فقيل له ان عمره ست سنوات وبعد دقائق خمس فتح باب القاعة ودخل كمال ، ثانيةً ، بلباس النوم متوجهاً نحو ابيه

– ماذا تريد يا كمال ؟

– انا اليوم عمري ست سنوات .. فكم سيكون عمري نهار السبت القادم ؟

فضحكنا جميعاً وقال له ابوه بلطف :

– سيكون عمرك ست سنوات واربعة ايام

– اربعة ايام فقط ؟!

قال الطفل ذلك بنبرة جمعت بين الفرح والحزن وراح يركض لينام ..

أو لا ترى في عهد الطفولة ، ايها القارىء العزيز ، مرآة تعكس لعينيك أشرف حياة وأطهر نفس ملؤها : النزاهة – الجمال – الامل ... ؟

انيابة ام شحاذة؟

* وكان مساء نهار الثلاثاء الماضي فاجتمعت ببعض الرفاق الكرام في أحد الاندية حيث اعتدنا الالتقاء لقضاء ساعة نتذاكر فيها عن مختلف شؤون الحياة من اجتماعية وسياسية وادبية. وقد لحظ الصحب ان ملامح جمعت بين الكآبة والاستغراب تارة وبين الهزء والعطف طوراً كانت تبدو على وجهي بجلاء فوجه الي أحدهم كلامه قائلا:

— انك اليوم على غير ما نعهد ايها الصديق العزيز، نراك ساكتاً واجماً كأنك تحمل في الصدر هماً فهل شيء من ذلك تسرد اسبابه علينا عسانا نخفف ما تشعر به من ألم

— شكراً لك يا «صالح» اجبت صديقي باسماً، لا هم في صدري يستوجب الطرد ولا ألم يدعو الى تخفيف انما جل ما هناك حادث من حوادث الانتخاب بل مهزلة من مهازله العديدة اتصلت بي على غير رجاء مني فاثارت هواجس النفس وتأملات الفكر! واذا بالاصدقاء الملتفين حولي تشرئب اعناقهم نحوي واذا باحدهم يقول:

— ما هذا الحادث او المهزلة الانتخابية يا صاح. اننا لفي أشد الشوق الى سماع احاديثك الواقعية التي تتصيدها في كل مكان وزمان

---

* هذه القصة ايضاً كتبت اثناء الانتخابات النيابية لسنة ١٩٢٨

فاجبت الصديق :

— اسمع يا اخي وليسمع معك الرفاق .. دعتني بعض الشؤون ظهر هذا اليوم للذهاب الى الباب الشرقي فاستأجرت عربة تقلني الى المحل المقصود ومن سوء الصدف ، او ان شئتم فقولوا من حسنها ، عثرت في المركبة على ورقة مطوية طيات عديدة ملقاة على زاوية المقعد فمددت يدي ملتقطاً اياها يدفعني حب الاستطلاع الغريزي واذ فتحتها وقع نظري على كتابة مستعجلة مما يدل على انها مسودة لرسالة ما وقد لاح لي ان كاتب الرسالة قد كتب ما كتب مضطرب البال حائراً يدلكم على ذلك عدوله عن اكثر الجمل واستبدالها بغيرها اكثر تعثراً واقل تعبيراً

وهنا قدم لي خادم النادي فنجان القهوة فتناولته منقطعاً عن الحديث فاعترض علي الرفاق ملحين بان اتمم حديثي قارئا عليهم تلك المسودة الملتقطة فاخرجت من محفظتي الورقة المطلوبة ولوحت بها قائلا:

— ستسمعونها بعد شرب القهوة

فامسك احدهم بيدي قائلا : اما ان تشرب القهوة دفعة واحدة ولو كانت محرقة او تتلو علينا الرسالة اولا . أسمعت ؟

— لا هذا ولا ذاك يا عزيزي فان العجلة بنت الشيطان وما هذه الرسالة . . . . .

فقاطعني صديق آخر :

— دعنا من الشياطين الان وقل لنا ممن صادرة هذه الرسالة والى من

موجهة فاجبته بعد ان افرغت فنجان القهوة :

يسوءني ان المسودة غفل من العنوان والتوقيع واعتقد ان كاتبها كان قد انذرته نفسه بفقدها فاخذ الاحتياط لنفسه واذ ابصرت ان الرفاق نفد صبرهم قرأت المسودة حرفياً :

بغداد في ٢٧ نيسان ١٩٢٨

الى .....

تحية وتعظيما :— أطلب عفو فخامتكم سيدي اذا كنت افاتحكم بقضية النيابة مرة رابعة ـ ومع انني شديد الثقة فلا ارى بداً من تذكير فخامتكم انني لم يبق لي اي اعتماد على اي شخص سواكم فليس من الممكن ابداً وقطعا ان تضيعوا آمالي ! تأكدوا انني اذا لم اصبح نائبا ساكون مهدداً بالم وعذاب

اما اذا ساعدتموني فانا سابقى مخلصا أبد الزمان مطيعا لامركم داعيا بطول عمركم فهل ستنعشوني بفضلكم وخيركم

« خادمكم الداعي المطيع »

فرغت من تلاوة الرسالة فقهقه الصحب عالياً فضحكت معهم غير اننا ما لبثنا ان ساد علينا صمت ووجوم

ضحكنا ولكنها كانت ضحكة الالم والاسف، ضحكة الخجل والبؤس او ليس مضحكاً مبكياً ان تقرأ مثل هذه الرسالة المفككة العرى المخطوطة بقصبة استمدت حبرها من حمأة الضعف والذل

وقال احد الاصدقاء :

– الحق انها رسالة غريبة في بابها

فاجاب آخر :

– بل انها رسالة يجدر بنا ان نحفظها للابناء والاحفاد لدراستها والاطلاع على الاساليب التي اتبعت في عصرنا لتوسد كراسي النيابة عن الشعب البائس

شعرت على اثر سماع هذا القول باختلاج في قلبي بعث الالم والهياج الى كل جارحة من جوارحي وقبل ان افوه بكلمة قال أحد الاصدقاء :

وصاحب الفخامة هذا من هو يا ترى ؟

فاجابه غيره :

– لايهمنا ان نسأل من هو صاحب الفخامة هذا انما يجدر بنا ان نسأل : هل ان فخامته سينزل عند رغبة هذا الشخص السائل المجهول ؟

– ارى ان ذلك من رابع المستحيلات قال صديق ثالث

ورأيت ان الرفاق قد اتجهوا نحوي يطلبون رأيي في الامر وكنت على أحر من الجمر للكلام فقلت :

– أوليست هذه يا صحب مهزلة من مهازل الانتخاب انه يستعطي النيابة كما يستعطي المتسول الخبز على الابواب ... فيا ليت شعري أي امل يرجى تحقيقه من رجل فاقد لمحبة ابناء وطنه ، مفتقر الى ثقتهم ، يحسب ان النيابة من الهدايا التي تقدم في الاعراس والاعياد او من القصاع التي توزع في

المحافل والمآتم فيمد يده قائلاً :

« تكرموا علينا يا قوم بامنية النفس الله يتكرم عليكم بما تشتهون »

رجل كهذا ايها الصحب كيف يمثل الامة في برلمانها وباي لسان ينطق عنها ؟!

— ينطق بلسان الفهاهة والضعف

— لا فض فوك ايها الصديق اجبت صاحبي وانا اشعر بمثل نار محرقة تضطرم في حنايا ضلوعي وما لبثت ان اردفت قائلاً :

— في اصعب الاوقات واحرجها ، في ساعة تنذر الامة والبلاد بكل هول جسيم ، في موقف يتطاير منه شرر القوة الغاشمة ليقضي على الضعيف المتمسك بعقيدة راسخة وايمان قوي ووطنية صادقة امتزجت عناصرها بلحمه ودمه ، في مثل هذه الآونة المدلهمة تصرخ البلاد العراقية من اعالي الفرات المبارك الى مصب شط العرب سهولها وتلالها انهارها ووديانها قائلة بلسان واحد :

« أريد رجلاً عراقياً ، ابي النفس ، قوي العزم ، مقدس الرغبات ، يضحي في سبيلي المنفعة والراحة ويحرق نفسه لاستضيء بنوره الرباني في هذه الظلمات الحالكة ، اريد رجلاً كهذا كيما يتسنى لي ، اذا ما ضممته الى ثراي ، ان اضمه بحب وعطف وتخليد »

وكان الاصدقاء يزدادون تأثراً كلما توغلت في الحديث وكان بعضهم يريد الكلام فلا يجد سبيلا مني الى مراده حتى اردفت :

— اجل ايها الرفاق هذا ما تريده البلاد في موقفها العصيب وذلك ما يريده ضعاف النفوس للتنعم بالجلوس على كراسي صنعت من عظام الشهداء

وهنا تنفست الصعداء قليلاً فانتهز الفرصة احدهم وقال :

أو ليس في الامكان ان نعرف يوماً ما من هذا الشخص الذي « يريد ان يكون نائباً » بمثل هذه الشحاذة ؟

— ان عواصف الحق لا تبقي على ستائر الباطل طويلاً فما علينا الا الانتظار وما على الايام الا التدوين !

المجنونة

— من حوادث الحرب العامة —

— وداعاً يا عزيزتي صفية وداعاً يا من قضيت بقربها اسعد ايام حياتي — رافقتك السلامة وعسى الا ينالك اذىً حيثما رحلت ... ولكن الا يمكن البقاء هذا المساء يا صبري ؟

— كلا يا عزيزتي ، فان فرقتنا قد دعيت لتنضم الى جيوش الجبهة الروسية وعلينا ان نشد الرحال بعد ساعتين

— آه ما اشقاني !

— لا تتفوهي بمثل هذا الكلام . ان الله يحرس عباده الصالحين . فاعتني بنفسك يا صفية ريثما تضعين حملك بعد ايام . انه سيكون سلواك في وحدتك

وهنا تعانق الزوجان فقبل أحدهما الآخر قبلات طويلة حارة ودموعهما تنساب على وجناتهما فتمتزج . وبعد دقائق وجدت صفية نفسها وحيدة في غرفتها ، فاسترسلت الى البكاء والنحيب حتى أخذ الكرى بمعاقد اجفانها فنامت .

***

مرت ايام فشهور ثم تبعتها سنوات قلائل هي سنوات الحرب العامة ، التي ما لبثت ان انطوت صفحاتها بما فيها من بؤس للبشرية وسعد

وفي أصيل أحد ايام نيسان ١٩١٩ كان رجل يناهز الثامنة والعشرين يسير في شوارع بغداد بخطوات مضطربة ، يطيل النظر بلهفة الى كل ما يصادفه في الطريق . يقف تارةً ويسرع طوراً وهو يرتدي ملابس رثة قد تكدس عليها الغبار وعلى رأسه طربوش احمر عتيق . وكانت ملامح التعب تبدو واضحة على وجه الرجل مما كان يدل الناظرين على انه قادم من سفر طويل

— الا كم سيكون فرحي عظيماً بلقياها ثانيةً . بل كم سيكون سرورها بلقياي ... آه يا صفية ان قلبي ما زال يدق بحبك ، وان عيني ما زالتا تتشوقان الى اجتلاء طلعتك الباهرة . .. وولدنا العزيز التي انقطعت عني اخباره منذ أمد بعيد ما أشد حنوي عليه . انهما سيكشفان غمومي وينسيانني الماضي وما قاسيت فيه من مصائب وأهوال !

هذا ما كان الرجل يحدث به نفسه وهو على الحالة التي وصفناها

وقف صاحبنا لدى بلوغه شارع النهر وما لبث ان دنا من أحد منازل الشارع حيث بقي متردداً لحظة . أيقدم على طرق الباب ؟ ام يترك ذلك الى الغد ريثما يثق من ان ساكنة الدار هي زوجته صفية ؟ وتغلبت عليه اذ ذاك عواطفه الفياضة فطرق الباب بيد مرتجفة طرقاً خفيفاً

ما ارهب الانتظار في مثل هذا الموقف . طرق الباب ثانية ففتحته فتاة صغيرة سائلة :

— من انت وماذا تريد ؟

– من يسكن هنا ؟ اليست ربة الدار امرأة تسمى صفية لها ولد يبلغ . . .

فقاطعته قائلة :

– نعم سيدتي صفية تسكن هنا . . . . واثنت داخلة الى الدار وهي تصيح : سيدتي صفية . رجل غريب يسأل عنك

وكان الزوج قد انسل الى البيت وصعد السلم بهدوء محاولاً مفاجأة زوجته المعبودة وما كادت الانظار تتلاقى حتى اسرع الرجل معانقاً زوجته وهو يقول : وافرحتاه ! وافرحتاه !

اما صفية فقد علا وجهها الاصفرار ، وشعرت بهزة تمشت في جميع مفاصلها وبكل صعوبة قالت تخاطب القادم بذعر :

الم تزل حياً يا « صبري » ؟ اذن لقد كذبوا !

– نعم ما زلت حياً يا حبيبتي صفية ، احمل اليك الحب الاكيد والاخلاص الشديد ما بالك ترتجفين . . صفية

ولحظ طفلاً بالقرب منه فاسرع وحمله مقبلاً وجنتيه . وحانت منه التفاتة فابصر طفلة تبلغ السنتين واقفة ازاء الغرفة فسأل متلهفا :

وهذه الطفلة أهي ابنتنا ايضاً . . . ؟

وكانت صفية قد ارتخت اعصابها فاستندت الى الجدار ، فدنا منها صبري قائلا : لا تجزعي يا عزيزتي ولا يؤثر فيك الملتقى هكذا . . . افرحي . . افرحي يا صفية . . وهنا ذعر الجميع لصوت مزعج يصرخ :

— ماذا ارى في بيتي . . ؟

ادار صبري وجهه فابصر قربه رجلا حسن الهندام ، يتطاير الشرر من عينيه وهو يزمجر زمجرة الاسد الغضوب

— من انت ايها الغريب ؟

— بل قل من انت يا من يدخل الدور متلصصاً ؟

— واي دور تعني يا وقح ؟ قل ماذا كنت تعمل او ادق عنقك ؟

— اصحيح ما اسمع ... صفية من هذا الرجل وماذا يقول ؟

فقاطعه قائلا :

— وانا اريد ان اعرف منك يا صفية من هذا الرجل وماذا كان يعمل هنا ؟

فرفعت صفية عينيها المسمرتين وقالت متوسلة :

صفحك يا زوجي القديم « صبري » رحمتك يا زوجي « سالم » !!

ور كضت الى غرفتها مقهقهة فدخلتها واغلقت الباب عليها

مسكينة انها جنت . . !!

ساكون كناساً

وحكم القضاء حكمه الصارم ! فاذا بيوسف يصبح ، بعد يسره ورفاهيته ، معسراً بائساً كلما قصد باباً للارتزاق الفاه مغلقاً وكلما ارسل طرفه فيما حواليه رده كليلاً دامعاً اذ انه ما عاد يبصر من الحياة سوى الظلمات الحالكة

ما امض السقطة من العلو الشاهق !

اين اصحابه الكثيرون ؟ اولئك الذين طالما صافوه كؤوس الود وناشدوه عبارات الاخلاص ؟ انهم قد انفضوا عنه متلاشين تلاشي الدخان لعبت به الرياح . وهو اليوم يريد في محنته مرتكزاً يستند اليه ومعيناً ينتصر به فلا يتاح له ما يريد .

لقد كان له قبل مدة قصيرة ما يحيطه بالراحة والرفاه : آلاف من الربيات يتاجر بها متاجرة واسعة ودار عامرة زاهية بما فيها من آثاث غال وخدم

يا لها من صدمة قوية حطمت كاس السعادة على شفتيه اذ ما هي عشية وضحاها الا وحل خريف الحياة فتناثرت اوراق سعادته واحدةً واحدةً ولم يبق له سوى زوجته الصالحة وولديه العزيزين وما هؤلاء في نظره سوى الاسباب الداعية الى الحياة

لقد علم اليوم ان تلك الثغور التي كثيراً ما كانت تقابله بالابتسام ما كانت تبسم الا للدراهم التي في جيبه وان تلك النغمات التي كان ينشدها

على مسمعه عدد من الخلق لم تكن صادرة الا من نفوس لا ترى الا مصالحها وقلوب لا تخفق الا بالانانية . فنقم يوسف على الحياة ونقم على ابنائهـا !

وكان على رجاء ان يستدين مبلغاً من المال من صديق يعهد فيه الاخلاص فلما حاول ذات يوم ان يفاتحه بمطلبه لم يجد الى ذلك سبيلا ممهداً اذ ان تقطيب صاحبه وملله كانا يحولان دون مراده

ومرت الايام حاصدة بمنجلها الحاد كل امل في نفس يوسف فمالت نضرة وجهه الى الذبول اما عائلته فقد كانت تتجرع من التعاسة كؤوساً مرة المذاق غير ان يوسف كان ، وهو في هذا البحر المتلاطم بامواج البؤس، متحلياً بحلية ثمينة هي عزة النفس الابية

ومن نكد البعض انهم اذا وقعوا في محنة تغلب عليهم اليأس فنكصوا على اعقابهم مذعرين لا يجرؤون على النزول في معترك الحياة والتحديق بافق الوجود . واليأس ! كم انشب اظفاره فمزق ؟ ! وغرز اسنانه فقطع ؟ !

سدت الابواب بوجه يوسف فاعتزم امراً رهيباً ....

***

وكثيراً ما حاول ان يطرد عنه بعض التصورات المخيفة ولكنها كانت تلازمه في غدوه ورواحه متغلغلة في اعماق نفسه وتلافيف دماغه فكان يجد نفسه حيالها مجرماً ليس له من الصفات سوى الخور والجبن ... وكان

يحدث نفسه احيانا قائلا : « ولئن اقدمت على هذا العمل فماذا سيحل بزوجتي وولدي » . وقبل ان يلقى جوابا على السؤال يجري الدمع من مآقيه مدراراً

وما زال الضيق آخذاً بخناقه حتى الفى نفسه أشبه بالحيوان الطفيلي الذي يعيش عالة على غيره فاحتقر نفسه لارتيادها من الحياة منهلا كدراً وبلغ اقصى ما يبلغه المرء من الشقاوة واليأس

***

ذهبت الزوجة الى غرفة المنام واستسلم الولدان الى الرقاد اما يوسف فلم يغمض له جفن انما مكث ساهراً تتنازعه الذكريات والعوامل واذ مر الهزيع الاول من الليل نهض الى مكتب في الغرفة المجاورة وشرع يكتب على ضوء المصباح تارة مندفعاً بسرعة وطوراً مترددا مذعوراً وكان قلقا مكفهر الوجه حائراً كمن ضل سبيله في صحراء قاحلة

واذ فرغ من كتابة اسطره على الورقة تناول قنينة كتب عليها :

« محلول حمض الفنيك » وتجرع مقداراً مما فيها باسرع من لمح البصر

***

علا الصراخ في الدار واصبحت الحارة في هرج ومرج على اثر هذه الكارثة فكان المنظر مفزعاً يفتت الاكباد

وظل المنتحر يقاسي من جراء شربه هذا المحلول كل عذاب أليم فينادي باعلى صوته وهو يضرب رأسه على الجدار :

– انقذوني ... يا ناس ... انقذوني ... لا أريد ان اموت ..!
سكين تمزق احشائي .. نار تحرق قلبي ... انقذوني .. رحماكم .. رحماكم ..
لا أريد ان أموت ...

وكان عويل زوجته واولاده يملؤ الفضاء وقبل مرور نصف ساعة نقل الى المستشفى بامر معاون مدير شرطة بغداد الذي خف الى محل الحادثة قياماً بواجبه في مثل هذه المواقف

وفي طريقه الى المستشفى كان معاون الشرطة يطالع الورقة التالية التي وجدت عل مكتب المنتحر :

« أموت منتحراً يائساً ... لقد فكرت كثيراً قبل ان اقدم على هذا »
« العمل فرأيت ان لا مناص لمن كان في مثل حالي من ان يفارق »
« الحياة غير آسف عليها ... وعلى من الاسف .. ! أعلى اولئك المنافقين »
« الذين لهم من مكرهم الف وجه والف لسان والف لباس .. يبتسمون »
« والحقد في صدورهم و يلاطفون والدناءة في طيات جوارحهم . . . »
« أموت منتحراً خير من ان أحيا كارهاً مضطراً »

« يوسف »

***

لم تكن قوة المحلول كافية لان تخمد انفاس المنتحر فافلت من مخالب الموت باعجوبة وبقي في المستشفى الملوكي تحت مداراة أحد الاطباء الحاذقين حتى اخذ يتماثل الى الشفاء

ومنذ ان ثاب يوسف الى رشده بعد تلك الجريمة التي حاول ان يوقعها في نفسه شرع ينظر الى الحياة نظر الجائع الى الخبز والظامىء الى الماء .. فهو يرى الآن شمس النهار باسمة والسماء زاهية وهو اليوم يستنشق الهواء بملء رئتيه فيشعر به معطراً تفوح منه اذكى الروائح ...

وكان يقول لزوجته القائمة بشؤونه في المستشفى : آه يا ام صبيح . . . اصفحي عني ... لقد كنت مجنوناً ... اما اليوم فقد فتح الله منافذ عقلي ... اصفحي عني ... لقد كنت جباناً أخشى التطاحن في معترك الحياة ... اما اليوم فانا أقوى من الصخر عزماً .. سأعمل ... سأناضل في سبيل حياتي وحياتك يا « عزيزة » وفي سبيل ولدينا المحبوبين

وهنا تدمع عين الزوجة فتجيب بصوت مختنق :

— الله يحرسك طويلاً ...

— « عزيزة » ما كان اكبر جرمي لو كانت التجربة السقيمة قد نجحت . آه ان الذكرى تثير آلامي

ويغمض الزوج عينيه مستسلماً الى تصورات بعيدة المدى ملؤها التفاؤل وحب الحياة فيسمع وقع اقدام خفيفة تدنو منه واذ يفتح عينيه ويبصر ولديه يومىء لهما بالاقتراب ولا يلبث ان يحتضنهما ويقبلهما قائلاً :

سأحيا ... فان الحياة لذيذة ... سأكون عاملاً ... سأكون حداداً ... لا بل « سأكون كناساً » اذا اقتضت الحال ..!

تبكي ..!

غادرت (ع ...) بيت ابيها حاملةً في اعماق قلبها عاطفتين ملتهبتين تبعثان الى نفسها ناراً ونوراً : الاولى عاطفة الحزن العميق الناشىء عن فرقة بيت عامر قضت فيه ازهى ايام حياتها محاطة بعناية ابيها وامها و باقي افراد اسرتها ... او ليس شديداً على الفتاة فراق اعزة سرى حبهم في جوارحها مسرى الدم في العروق ؟

والثانية هي تلك العاطفة الغريبة الفياضة المضيئة ظلمات الروح اضاءة البدر جنح الدجى ، عاطفة التطلع الى لذة جديدة وسعادة دائمة كثيراً ما حلمت بهما في سنوات بلوغها فحنت منذ زمن الى من يشاركها الحياة ويحتل قلبها احتلالا حبياً لا جلاء بعده . اما اليوم وقد حصلت على امنيتها العزيزة بالتجائها الى بيت زوجها طاهرة الذيل ، ناصعة الجبين ، فهي مفعمة القلب والفكر بفيض من الامال الذهبية التي تتراءى لها شبه ملائكة معراة ترقص موقعة على اسماعها اشجى الانغام . !

لقد تركت بيت ابويها فما اشقاها ... ولكنها اوت الى بيت زوجها (ق ...) فما اسعدها

سنة طبيعية لن ترى لها تبديلاً : خلقت المرأة خمرةً للرجل وخلق الرجل زهرةً للمرأة وكما يحدث ان هذه الخمرة قد تفقد شعور الرجل

فيهوي الى الحضيض كذلك قد تبعث تلك الزهرة من اوراقها رائحة سامة تفضي الى الهلاك ...

***

لم يمر على الزواج اسابيع معدودة حتى لوحظ في مناحي العروس الحسناء شذوذ غريب .... اين اساريرها الطافحة بشراً في غدوها ورواحها ؟ واين تلك الابتسامات العذبة التي كانت تقابل بها زوجها وذويها ومعارفها ؟ لم يبق من ذلك شيء انما حل محل البشر صمت وتفكير وطرد الابتسام عبوس وتقطيب فكانت ترى هالعةً فازعة لا يهدؤ بالها الثائر وكانت تستسلم الى البكاء كلما الفت نفسها في خلوة !

بائسة . انها « تبكي .. ! » فما الذي اولد فيها هذا التغير الفجائي .. ذاك سر من اسرارها مخيف ما كانت لتبوح به ولو ان اصرارها ادى الى سخط الساخطين . وكانت تقول لاقاربها :

— انني ابكي وماذا يهمكم بكائي ... ابكي حظي العاثر ... واملي الخادع ... فانصرفوا عني .. !!

فتقول لها امها :

— ان زوجك، على ما نرى، ما زال يحوطك بعنايته فلم هذا البكاء ؟

— ابكي ... اجل ابكي ... لانني يجب علي ان ابكي فلا تحاولي كشف ما اضمر يا اماه .. !

وتبلل الدموع خديها المائلة حمرتهما الى الاصفرار الذي اكسبها جمالا

على جمال فتنصرف الام كئيبةً يائسةً من الاطلاع على سرها المجهول

اما الزوج فما كان ليبدي شيئا وما كان ليعيد

وأخذ قلق الاهل يزداد يوماً فيوماً لا سيما وهم يرون ابنتهم تتقدم بخطوات متعثرة نحو الذهول قارئين على جبهتها سطور الآلام اللامستقرة. ولطالما حاولوا استكشاف سرها فلم يتوصلوا الى النتيجة التي كانوا يرجون من وراء كشفها دفع ما ألم بابنتهم العزيزة

واذ ضاقت بهم السبل فكروا ان ليس هناك من يتمكن من استطلاع مكنونات نفسها سوى مربيتها العجوز التي تحبها حباً جماً فكلفوا الاخيرة بان تزور ابنتهم في بيت زوجها وتسعى سعياً متواصلا لكشف الخبر مستخدمةً في سبيل هذه الغاية حنكتها وتدابيرها المأثورة عنها فوعدتهم العجوز خيراً

***

بعد حديث طويل واخذ ورد قالت المربية :

— لو كنت قد علمت انك ستقابلينني يوما ما بمثل هذا الجفاء لما سهرت عليك طوال الليالي ولما ضممتك الى صدري وانت طفلة لا تدركين شيئاً .. وا أسفاه على تلك الاتعاب التي ضاعت سدى ، اتعاب ثمانية عشر عاماً واكثر

— ما هذا الكلام يا مربيتي العزيزة . أو تشكين في حبي الاكيد لشخصك . ثقي ان لك في قلبي ما لأمي من الود والتعلق ... فلا تنطقي

بمثل هذا اللوم الجارح !

فاجابت العجوز بنبرة حزينة :

— ان هذا اللوم لا يجرح سوى قلبي ... انني يا بنيتي لا أرغب الا في صلاحك فـاطلعيني على اسبـاب هذه الآلام التي خيمت عليك منـذ بضعة اسابيـع

— وماذا تهمك معرفة هذه الاسباب ؟

— انك اذن لا تقدرين ما تشعر به مربية رؤوف مثلي ازاء ابنة صالحة مثلك ... قولي أتشكين شيئاً من احوال المعيشة

— كلا ...

— او في حياتك الزوجية ما ينغص عليك عيشك ؟

— دعيني بالله ... دعيني ...

— قولي يا بنيتي فانا ممن يكتمن الاسرار ... وثقي انني لا اعمل الا ما فيه نفعك ... هل تشكين مرضاً ؟

— نعم ...

— مرضاً سرياً لا تريدين ان تبوحي به لاحد ..

فتنهدت الحسناء وقالت :

— قد يكون ذلك ...

— وزوجك أمطلع عليه ؟

— نعم مطلع ..!

– اذن قولي لي ما سبب حلول هذا المرض فيك ؟

– دعيني ناشدتك الله دعيني ولا تسأليني اكثر من هذا

– سؤالا آخر فقط . . . أو تظنين ان زوجك هو الذي سبب هذا المرض ؟

فبدت ملامح الانزعاج على اسارير المستجوبة وحاولت ان تتخلص من الجواب فلم تجد الى ذلك سبيلا لان العجوز كانت تتطلع اليها بفروغ صبر وما لبثت ان قالت بتلعثم :

– لا ادري !

– بل تدرين . . . اجيبيني بـ « نعم » او « لا »

فاجابت الفتاة بعد تردد :

– نعم . . !

وارتمت على كتف مربيتها العجوز تبكي بكاء مراً . . !

***

اطلع الابوان على ذلك السر الهائل الذي كان ينخر حياة ابنتهما كما تنخر الدودة قلب الشجرة اليانعة وهي ابان ايراقها واثمارها . . . فعلما ان فتاتهما التي سقياها بماء حياتهما ورياها التربية السامية الشريفة قد وقعت وقوع الحمامة بين مخلب الصقر ينشب فيها اظفاره الحادة . .

لقد ابتلاها الزوج بمرض تناسلي وبيل فاين الطبيب . . ؟!

الحب المبتور

امي شفيق

يؤسفني ان تكون النتيجة على غير ما تهوى . فلقد فاتحت ابي بالامر على مسمع من امي وقلبت لهما صفحات الحب الكائن بينك و بين شقيقتي واحدة فواحدة .. اتدري ماذا كان جوابهما ؟ انك لا تنتمي الى عائلة ذات منزلة رفيعة في المجتمع !

ولقد فكرت مليّاً في كلامهما فرأيت من العبث ان ابدل معتقدهما في مثل هذا الشأن الحيوي لذلك لم ابد ولم اعد

اكتب لك هذه الكلمة الوجيزة مصارحا ، على امل انك لا تقابل هذا الخبر الا بما يجب من البرود وعدم الاكتراث .. وثق انني كنت اود من صميم القلب ان تجمعنا — كما جمعتنا الصداقة — مصاهرة سعيدة مثل هذه ، ولكن الظروف يا اخي كثيراً ما تقسو

وارى ان الواجب يقضي عليك ، بعد ان بدت النتيجة ، ان تصرف النظر عن شقيقتي غير آسف على ذلك الحب العقيم

وعلى كل فانا ما زلت لك مخلصاً

« نورى »

فرغ شفيق من تلاوة الرسالة بعد ان عانى ما عانى في قراءتها من

مختلف الشعور المتدفق فتارةً كان يشعر بنار تحرق قلبه وطوراً يحس بالدمع ينساب على وجنتيه وآونة يغمض عينيه مستسلماً الى اليأس القاتل. فرغ من تلاوتها فاذا بالارض تدور به الفضاء، فارتمى خائر القوى على مقعد في زاوية غرفته وشرع يتمتم:

اصرف النظر عنها..! ما امر هذه النتيجة..!

وتغلبت عليه الهواجس فالفى نفسه بائساً، شريداً لا يملك من القوى الاجتماعية ما يحطم به تخرصات عائلة حبيبته ويمكنه من اختطاف ابنتها التي احبته واحبها منذ ان توالت زياراته لشقيقها نوري — ولقد كان امس قوي الامل بالفوز، شديد الايمان باخلاص العائلة له غير انه، ويا للاسف، يشاهد اليوم عكس ما كان يرجوه.. انه لشديد على المرء ان يرى قصور امانيه تقتلع اسسها رياح الاعتبارات السخيفة فتهوي باحجارها واخشابها على رأسه المفعم بالاحلام الذهبية!

ماذا يعمل في موقفه هذا؟ أيصرف النظر عن تلك الفتاة التي سقاها وسقته كؤوس الحب مترعةً؟ انه لفي حيرة من امره...

يقولون له: «لست يا هذا من عائلة ذات منزلة رفيعة في المجتمع!» وهو يدري ان المنزلة الرفيعة التي يقصدونها في كلامهم هذا، والتي يرمي اليها هذا المجتمع باسره، هي كمية من آلاف الريالات لا غير.!!

وشعر الفتى بالافكار تتسابق في دماغه تسابق الخيل الهبتها السياط فنهض الى مكتبه وشرع يحبر الى صديقه نوري، شقيق حبيبته، رسالة

افرغ فيهما مشاعره الثائرة واذ انتهى من كتابتها تنفس الصعداء كمن القى عن ظهره حملاً ثقيلاً

***

— هذه رسالة مسجلة باسم نوري افندي

فتناولتها الفتاة من موزع البريد ، لان شقيقها كان متغيباً عن الدار ، واذ القت نظرةً على الغلاف شعرت بهزة سرت في مفاصلها وما لبثت ان قالت :

— انه خطه ... اعرفه جيداً ... ومع ذلك فلأطابقه

وهرولت الى غرفتها فطابقت الخط مع احدى الرسائل الغرامية المرسلة من شفيق فاذا الخطان واحد لا فرق بينهما البتة فقالت في نفسها :

وما عسى ان يكون الامر الذي اضطره الى الكتابة البريدية وهو في العاصمة ؟

وثار بلبالها متشائمة وليس غريباً ان تتشاءم بعد ان علمت ان العلاقات، بين المحب والعائلة ، توترت على حين غرة فحدثتها نفسها بفض الرسالة قبل مجيء شقيقها ولكنها خشيت عاقبة هذا الاقدام لذلك اعتزمت ان تسلم الرسالة الى شقيقها وتلبث مترقبة الفرص لمطالعتها خلسة

كان الظهر فتناول نوري الرسالة وشرع يطالعها فاذا بالفتاة تبصر ان ملامح شقيقها قد تغيرت وان الارتباك قد استحوذ عليه ، فقالت في نفسها ان في الامر — ولا شك — ما فيه ... غير انها برغم ما كان يجيش في

نفسها من التطلع الى كشف المجهول كانت تتظاهر بعدم الانتباه لكيلا تسترعي نظر شقيقتها

وكان من عادة الشقيق ان يرقد بعد الظهر قليلاً ليسترجع قواه ، واذ تيقنت ان شقيقها اصبح رهن الكرى اسرعت الى غرفته الخاصة حيث نزع ملابسه فتناولت الرسالة بيد مضطربة وطالعت بامعان :

امي نوري !

ما كان يخطر في بالي انك ستسحق تحت قدميك يوماً ما ، تلك المبادىء المقدسة التي تعاهدنا سوية على التمسك بها ، ما دمنا احياء ، مبادىء الشرف الحقيقي والعزة النفسية .. عجباً اتخمد في نفسك تلك النار المتأججة التي كنت اصطلي بلهيبها في ملمات الحياة ؟ أينطفىء بيديك ذلك المشعل المضيء فتلقي به وراءك غير آبه لظلمات الطريق ؟ وا أسفاه يا نوري كنت اظنك تعلم حق العلم ان لقيمة الانسان مقياساً غير مقياس الذهب والفضة وان للشريف النفس من الفخر والمجد مالا يمت الى آبائه واجداده بصلة . . . !

قل لابيك يا نوري : «ان الحياة التي تبنى على الاعتبارات الوهمية لحياة بائسة . . . وان الفتاة التي يقودها اهلها الى قصور الذهب قد لا تأنس نفسها الى اصحابها ، وقد ترى نفسها سجينة في تلك القصور . . والسجن سجن سواء أكان من حديد ام كان من ذهب !»

وقل لامك يا نوري : «لماذا تكرهين ابنتك ؟» فان قالت لك :

« صه يا هذا انني اعبدها ! » فاجبها : « انك لفي ضلال مبين » ..

اخي نوري ! الام التي تحسب انها ، اذا حصلت لابنتها على العقود اللؤلؤية والخواتم الماسية ، قد حملت اليها السعادة الدائمة فهي قد تقضي على ابنتها اذا توصلت الى غايتها هذه من وراء سحق عواطفها وقتل مقدساتها

انتم تريدون شاباً ينتمي الى عائلة ذات « مركز سام » فيا ليت شعري ما هو سمو المركز في نظركم .. لا تحاول الاجابة على هذا السؤال فالجواب عندي

أجل عندي يا نوري .. !

لقد غرني السراب وهذا شأن سليمي النية في كل زمان ومكان .. واليوم حكم ابواك على حبي « بالبتر » الشنيع بعد ان كنت أحسب ان لي من ابتساماتهما وابتساماتك انت يا نوري ومن احاديثكم الطيبة خير معوان لي في الحصول على سعادتي وسعادتها هي ..

انها تحبني ... ! اتعلم ذلك جيداً .. ؟ انها تحبني فهل من الانصاف ان تتركوا هذا الحب مبتوراً يئن .. ؟

قلت لي في رسالتك انك تأسف جداً لخسارة الصفقة والقيت التبعة على الظروف التي قلت عنها انها كثيراً ما تقسو

ماذا تعني بالظروف يا نوري ؟ ان الظروف كلمة لا افقه لها معنى ... لقد كان جديراً بك ان تقول لي « ما اقسانا نحن » اجل ما اقساكم انتم ..

ان قلوبكم يا دعي الصداقة لمن الصخر الاصم !!

نصحتني بان اصرف النظر عن شقيقتك التي عبدت فيها الرقة والطهارة ، واتناسى ذلك الحب العقيم ، فخليق بك ان تعلم انكم لئن استطعتم ان تبتروا حبنا المقدس فليس باستطاعتكم ان تقضوا عليه ...!

« شفيق »

وهنا صرخت الفتاة بصوت كاد يسمعه اهل البيت :

— أجل ليس باستطاعتكم ان تقضوا عليه ايها الظالمون ...!

وانهالت تقبل الرسالة قبلات حارة طويلة ...

---

* يعتذر المؤلف عن نشر قصته هذه مبتورة مثل حب بطلها « شفيق » غير انه يعد بان يتم في المستقبل وقائعها التي لم تصل حتى اليوم الى اكثر من هذا . .

ابنة الراعي

كل يوم صباحاً عندما تطرق الشمس ابواب السماء الذهبية ، فتدخلها باعثةً اسنى اشعتها الى الارض المتيمة بالضياء ، يسوق الشيخ قطيع الاغنام المودعة اليه من سكان احدى قبائل ديالى ويمضي بها بعيداً قاصداً المناهل العذبة والمراعي الخصبة ، حيث يرمي عصاه على العشب ويلف عباءته جاعلاً منها وسادةً يتوسدها بينما يكون القطيع سارحاً مارحاً هنا وهناك

وبين يوم وآخر كانت ابنة الراعي تصحب اباها للرعي ، وهي غادة في التاسعة عشرة من عمرها ذات جمال عربي فتان تزينه سمرة خفيفة ممتزجة بحمرة الصحة المنشودة وعينان واسعتان صافي بياضهما ، بارق سوادهما اي بريق !

وكثيراً ما سمعت البنت اقاربها يتحدثون عن المدن وجمالها سيما بغداد فكانت تتلهف الى اخبارها غير انها لا تلبث ان تنسى كل شيء سوى كوخها الصغير وقطيع ابيها وفرقة الحرس القوية الشكيمة ، المؤلفة من كلابهم السبعة

لا هم يشغل بالها ولا مطمح يثير هواجسها ، انما كل ما في حياتها هدوء وسلام ! اما قلبها الطاهر فهو مملوء حباً قدسياً ، يحمل اليها السعادة الدائمة ... اجل انها تحب واي حب شديد ... تحب اباها وامها واخويها الصغيرين

وكوخها وقطيعها وكلابها ... تحب الكل حباً جماً هو مدعاة سرورها في الوجود

***

أخذت الشمس تلم اشعتها وتتهيؤ لتوديع الغبراء فنفخ الراعي ببوقه جامعاً اغنام قطيعه المتفرقة ، وكانت ابنته قد ابتعدت عنه جادة وراء عدد من الاغنام الشاردة وفيما هي تركض لردها ، يساعدها في عملها كلبان نشيطان ، اذ طرق سمعها صوت رخيم يغني فتحمل الرياح نبرات غنائه واضحة :

صدري بنار الحب * يحوي ضلوعي
فاي متى يا رب * تكطع دموعي

وكان الصوت شجياً يمده المغني مداً طويلا ويرفعه عالياً ثم يهوي به الى القرار فخيل الى ابنة الراعي انها تلمس في صدر هذا المحب الجمرات المحرقة ضلوعه ، وشعرت كأنها توشك ان تمسح دموعه المنسكبة . . . فوقفت صامتة واجمة لا تدري أتتقدم الى الامام ام تنكص على اعقابها وقبل ان تستقر على رأي مر بها فتى اعرابي جميل الطلعة يحمل على كتفه بندقية فحدجها بنظرة طويلة ثم سار مسرعاً لا يلوي عليها فشرعت تشيعه بنظراتها وقبل ان يبتعد عنها قليلا سمعته يغني ثانية :

فوادي يون ونين * شن هل بليه
ظلمج ترى عل عين * ما يه اذيه

وانقطع الصوت شيئاً فشيئاً وتوارى الفتى عن انظار الفتاة فاسرعت الى ابيها الذي كان بانتظارها ومن ثم رجعت واياه الى الضيعة وفي قلبها ما فيه من شعور غريب لم تفقه سره

***

هو الحب ينمو في قلب الفتاة كما ينمو في قلب الفتى ، تسقيه النظرات الفتانة ويغذيه الجمال الجذاب ، فان وجد له مجالا واسعاً ازهر واثمر ثماراً يانعة وان لعبت به ايدي الاهواء كان نقمة ووبالا !

ان تلك الاغاني الشجية التي سمعتها ابنة الراعي من ذلك الفتى العربي لم تكن الاخيرة من نوعها انما كان يتكرر سماعها كلما انتحت جانباً من السهل كما تكرر سماع انغام غيرها اسمى شعوراً وأشد تأثيراً مصحوبة بتقاسيم الربابة التي كانت تميل بلواعج الفتاء ميلان الريح بالغصن الرطب

وفي اصيل ذات يوم كانت الفتاة تعجن في كوخها ، فلفت نظرها كلب متجه نحوها واذ تطلعت اليه ابصرته يحمل في فمه زهرة حمراء في منتهى الجمال ، ألقى بها على قدميها وعاد من حيث اتى ..!

وخطر للفتاة ان تتبع مسير الكلب عساها تعثر على صاحبه فاسرعت الى عباءتها والقتها على رأسها ومضت مسرعة ... يا للعجب .. فانها سرعان ما ابصرت الكلب يتبع فتاها المعلوم ..!

ما معنى هذه الامور يا ترى ؟

ذلك سؤال كثيراً ما احتل فكر الفتاة التي ما كانت لتفقه من معاني الحب ما يسهل عليها فهم هذه المغازي

***

اطلعت البنت امها على كل ما هنالك من شؤون هذا الفتى وأضافت قائلةً انها تشعر بميل اليه ، وان لم يكن من ذوي قرباها

وكانت الام ذات اخلاق حميدة وكرم وعفة لا ترغب من وراء تزويج فتاتها ، في الحصول على مال او كسوة ففاتحت زوجها بالامر وعرضت عليه تزويج ابنتهما من هذا الفتى الفلاح الذي كثيراً ما اظهر شجاعة ونبلاً فوافق الأب على هذا الزواج فتم — ولا تسل كيف تم — بين التهليل والترنيم

***

فرغت من سرد هذه القصة على جماعة من الاصحاب اناثاً وذكوراً فقال لي رجل يبلغ الثلاثين من عمره :

— كأنك يا صاح تريد ان تثبت بقصتك هذه ان حياة البدو في الصحارى والمروج ، اجمل وارقى منها في المدن والعواصم . فان يكن هذا رأيك . . .

وقبل ان يتم الرجل كلامه فأجيبه على سؤاله انبرى احد الرفاق قائلاً :

— ان رأي صديقنا واضح وضوح الشمس في النهار الصحو ، انه يريد ان يدل بقصته على ان الزواج بين عرب البوادي ادعى الى الارتياح

منه عند سكان المدن ، فهو ينشؤ هنالك على الاكثر في تربة صالحة لا يخيم عليها الابهام ، ولا يحوطها الشك ... هناك يراها ... وهناك تراه ... ولقد يحبها ولقد تحبه ! ومن هذه الرؤية ومن هذا الحب قد ينبثق فجر الزواج السعيد أليس كذلك يا اخي ؟

قال صاحبي ذلك موجهاً كلامه الي فقلت :

ـ لقد سردت' احدى قصصي اجابةً لطلبكم ايها الرفاق الكرام اما ان تطلبوا مني ايضاحاً وشرحاً لما ورد فيها فذلك ما لا يسعني تلبيته . ..

وهنا تنحنحت عجوز فالقت نظرة جشعة على ابنتها الجالسة ازاءها ثم خاطبتني :

قل لي ثانيةً بالله فقد نسيت' ... ايهما كان يملك من الربيات اكثر مبلغاً ، الفتى الفلاح ام ابنة الراعي ؟ فقهقه الحاضرون عالياً وقهقهت انا ايضاً قائلاً بسخر وألم :

ـ الربيات ايضاً ... الله يلعن الزواج التجاري الف لعنة ولعنة !

المسلولة

ينظر « صادق افندي » الى الحركة العصرية التي ترمي الى التجدد بانواعه ، ولا سيما الاجتماعي منه ، نظرة قلق وارتياب ناشئين عن كره شديد لكل بادرة من بوادر الانعتاق من التقاليد والعادات القديمة رغم ما في الكثير منها من الفظاظة والانحطاط

فصادق افندي محافظ متطرف في محافظته الى حد الافراط ، ومما يعتقد به اعتقاداً راسخاً ان الانسان اذا اخفق في سعي ما فعليه ان يكف عنه والا فهو يريد مجابهة الله وان مطالعة الكتب والجرائد ، مهما كانت ، يجب ان تقصر على الرجال وان المرأة يجب ان تطيع الرجل طاعة عمياء وتسلس اليه القياد جسماً ، فكراً ورغبة

« ألم يكن الرجل اصلاً والمرأة فرعاً منذ ان وجدا على البسيطة ؟ فمن العبث والطيش ان يحاول البعض التقريب بين منزلتيهما » ذلك ما كان يقوله صادق افندي لاصحابه اذا ما دار الحديث عن المرأة وكان يرى في المرأة سلعة تباع وتشترى وآلة تضمن للرجل سداً للشهوة وانماء لنسل يكون له معواناً في المستقبل

وكان لصادق افندي ابن اخت يدعى كاملا قد اكتسب من الصفات الحميدة والعلم الصحيح ما جلا بصيرته وشحذ قريحته فكان جل همه ان

يرى اهله وابناء بلاده متسنمين من المجد ذروة عالية ولذا فهو ما كان ليفتر عن نصح هذا وردع ذاك بكلام ملؤه الحماسة والنبل

وكان كامل يتردد على بيت خاله صادق افندي كلما وجد فرصة سانحة فيقابله الاهل بما يستحق من البشاشة والترحيب فتأنس نفسه ايناساً تشوبه بقع من الالام الناجمة عما يشاهده على وجه زوجة خاله من امارات الحزن الخفي وعلى وجنتي ابنة خاله « وحيدة » من ملامح البؤس

لقد كانت هذه العائلة وما زالت تعيش عيشة كلها قيود ثقيلة كبلتها بها يد الزوج المحافظ فكانت الوالدة تبث الشكوى لكامل وتقص عليه ما تعانيه الابنة من اضطهاد الاب وتعنيفه اياها لاقل حركة

— وحسبك ان تعلم يا كامل اننا كرهنا الحياة ... وايه راحة في حياة هي اسيرة الذل ... مسكينة ابنتي « وحيدة » ها انها قد بلغت الثامنة عشرة من سنيها وهي لم تدخل مدرسة بينما اقبال الفتيات على دور التدريس ما برح يتضاعف ... واتذكر انني منذ زمن فاتحته بان نرسل ابنتنا الى المدرسة فاجابني بالشتم والاهانة ومنذ ذلك الحين لم اجرأ على مفاتحته ثانية بالامر ... أرأيت يا كامل اية حياة نحيا واي امل نحمل في النفس ؟ !

وكان كامل يصغي مطرقاً تجيش في صدره آلام مبرحة اثارتها من مكنها كلمات الام فقال :

— انني لفي انتظاره حتى اذا ما اتى حادثته في هذا الشأن ملياً

— او ترجو ان يكون حديثك مثمراً ؟

— سنرى ...

***

بعد ساعة كان كامل وخاله صادق افندي مختليين في غرفة مؤثثة على الطراز القديم وكان كامل كثير التردد في تنفيذ ما اعتزمه لانه يعلم جيداً صلابة خاله وعنفه فكيف يجرؤ وهو ابن اخته المطيع على مفاتحته بحديث قد يجر الى ما لا تحمد عقباه ... وفكر الفتى ملياً ... فاذا به يشعر بدوافع عدة تحمله على الاقدام وبعد توطئة لم يكن بد من ايرادها قال الفتى :

— لا أظن الفرصة قد ضاعت . وان بامكانها ان تتلقى شيئاً من مبادىء العلوم في احدى مدارس الاناث ... فقاطعه الخال :

— وعمن تتكلم يا كامل ؟

— عنها . الا ترى ان العلم نور للفتاة يهديها الى السعادة سواء أكانت في بيت ابيها ام في بيت زوجها

— سألتك عمن تتكلم يا هذا ؟

صرخ صادق افندي منزعجاً فصمت كامل قليلاً ثم اجاب :

— عن ابنة خالي

— عجباً عنها ... وحيدة ...

— نعم وحيدة . واي وجه للعجب ؟

— وأي وجه للعجب تقول . . ؟ أو تعتقد ايها الفتى المغرور الذي اعمته مظاهر المدنية الكاذبة ان في ارتياد المدارس سوى سقطة الفتاة . وان في طلب الفتاة العلم العصري سوى ضياع مكارم اخلاقها . . . دعنا من هذه السفسطات يا كامل ولا تعد علي الكلام في مثل هذا الشأن . وبعد فكيف تشير انت علي بخروجها من البيت — وهي ابنة خالك — والسماح لها باجتياز الازقة والشوارع الى المدرسة ؟

— وأي خوف عليها يا سيدي من اجتياز الطرقات انني لمستغرب منك مثل هذا الكلام

— حقك ان تستغرب فانك ما زلت طفلاً أحمق وان كنت قد تجاوزت السادسة والعشرين . . لقد بليتمونا والله يا قوم . . ماذا تريدون من اعراض الناس ؟ ماذا يهمكم تعليم فتياتنا وعدمه ؟ اتركوا الناس وشأنهم تستريحو وتريحوا !

— على رسلك ياخالي ، اجاب الفتى برزانة ، اني لا ابغي لابنة خالي سوى السعود . أو ليس من الحيف ان تبقى هذه الزهرة اليانعة بعيدة عن مجاري العلم ، بعيدة عن نسمات الوجود ، بعيدة عن كل ما يبعث فيها دبيب الحياة . هنا في هذه الدار ولدت وعلى اوحال الزقاق ترعرعت واليوم تسجنها بين هذه الجدران محرماً عليها العلم . . النور . . النسيم . . آه ان هذا يفقدني صوابي . . ان هذا ظلم . . ان هذا . .

وكان الخال يسمع على مضض منه واذ نطق كامل بكلماته الاخيرة

زمجر الخال صارخاً :

صه يا هذا فقد فقدت اخلاقك واني لبراء منك . هيا اخرج من داري ولا ترني وجهك القبيح بعد اليوم

علم الفتى لدى سماعه هذا الكلام الجارح انه تجاوز حدود اللياقة مع خاله غير انه ما لبث ان احس بفيض روحي يحثه على المناضلة حتى الاخير انتصاراً لمبدأ يراه في غاية السمو ودفاعاً عن حقوق فتاة يراها اشبه شيء بحمامة قص جناحها ثم القيت في قفص تعاني ما تعاني من الاوجاع

— ان في وسعك ان تطردني من دارك وان تتبرأ مني وان في وسعي ان امضي في قولي : ان هذا ظلم مشين .. وانك ظالم اجل ظالم !

نطق كامل بكلماته الاخيرة وغادر بيت خاله متأثراً هائجاً اما الخال فقد اظلمت الدنيا في عينيه فهرول الى حيث زوجته وابنته واخذ يمطرهما شتماً وسباً يندى لهما جبين الشرف

***

بعد ثلاث سنوات مضت على هذه الحادثة تنـاول صادق افندي صباح ذات يوم رسالة قرأ فيها ما يلي :

ايها الخال الغشوم

قبل ايام لحظت لدى مروري بداركم طبيباً يزوركم فدفعني القلق الى الاستفسار من بعضهم عمن هو المريض منكم فبلغت خبراً عصر من محاجري دموعاً سباقة . آه ما امرها كارثة ... ارأيت عاقبة التضييق

والارهاق ايها الخـال الظالم ارأيت كيف ان سجن الحمامة طويلا قد يفضي بها الى القبر ؟ لقد منعت عنها النسيم الذي تتمتع به انت في كل مكان وزمان ، لقد منعت عنها الشمس الوضاءة التي تطل عليك حيثما توجهت اذ قد سجنتها في هذه الدار ذات الغرف الاربع الضيقة .. آه ما اشد المصاب .. لقد اصيبت وحيدة ... بالسل ... واحسرتي على شبابها الذابل ... والهفي على حمرة وجنتهـا التي اصبحت اليوم كزهرة الفل اذبلتها ، وهي على الغصن ، ريح سموم ... رب اهدهـا الشفاء العاجل ... رب .. آه .. ليبق ما في قلبي مكتوماً ...

« كامل »

قرأ الخال هذه الرسالة المؤلمة عباراتها ، المضطربة خاتمتها فشعر بدوار في رأسه ووخز في قلبه فاستند الى الجدار مفكراً وبعد هنيهة هرول الى غرفة ابنته شاحب اللون ، بادي الارتباك وبعد ان وقف بجانب سريرها قليلا سألها بلطف :

ـ اتريدين الانتساب الى احدى المدارس ؟ اتحبين النزهة هذا المساء على شاطيء دجلة ؟

فرفعت الفتاة عينيهـا المغرورقتين بالدمع شاخصة الى ابيها وحاولت الكلام فانتابها سعال شديد طويل انهك قواها فاستسلمت على اثره الى الرقاد

ـ ماذا كانت تريد ان تقول يا ترى ؟

قال الاب ذلك بصوت منخفض حزين وهو يمسح دمعة تدحرجت على خده المتجعد ... !

العرّافة

— يا نساء ، يا رجال ، يا اولاد ، يـا بنات .! من شاء معرفة اسرار حظه فليسرع الي . انا العرافة الشهيرة .. انا كاشفة الغيب . انا قارئة المسطور على لوح القدر ..! اسرعوا ... انا أم العجائب !

هذا ما كانت تنادي به عجوز شمطاء تناهز الستين من سنيها ، متجعدة الوجه ، قصيرة القامة ، براقة العينين ، قد التفت بعباءة ممزقة وسارت في زقاق ضيق من ازقة بغداد بخطوات تنم ، رغم شيخوخة صاحبتها ، عن عزيمة وقوة وكان الدهاء يبدو على وجه العرافة اذ تنادي النـاس الى الالتجاء اليها مشوقةً اياهم الى اجتلاء اسرارهم مستعينةً بصوتها الجهوري والفاظها الجذابة التي قلما كانت تبدل معانيها

وطرق مسمع « أم لطيف » صوت العرافة يتردد في الزقاق ففتحت الباب ودعتها للدخول فدخلت هذه بخيلاء وعجب قائلة :

— أليس لك ولد يناهز الثلاثين من عمره يبدؤ اسمه بحرف « اللام »

فبدت امارات الاستغراب على محيا ام لطيف وعزب عن بلادتهـا ان كنية « ام لطيف » يعرفها عدد من الناس لا يحصى

وانتحت العجوزان زاوية من الدار تمثلان على مسرح الحياة دورين متناقضين : هذه دور السذاجة وحسن النية وتلك دور المكر والخبث

و بعد ان استقر بهما المقام اخرجت العرافة من تحت عباءتها خرقةً بالية مطوية عدة طيات ادنتها من شفتيها وطبعت عليها قبلتين باردتين مدمدمة بالفاظ لا تفهم ثم نشرت الخرقة فبان ضمنها كتاب قد اصفرت اوراقه وتمزق جلده فاصبح ذا شكل تشمئز منه العين

وأشارت العرافة على « ام لطيف » بان تضع اصابعها على الكتاب ثم ما لبثت ان قلبت صفحاته واحدة واحدة و بعد سكوت قصير وامعان في احدى الصفحات قالت :

— مصاب هائل ، هائل قد ينتهي بالموت . غير ان بامكانكم ان تتحاشوه

فبلعت ام لطيف ريقها وقالت متلعثمة :

— وكيف .. ؟

— اعلمي يا هذه انك أن لم تزوجي ولدك لطيفاً حتى نهاية الشهر المقبل فسيمرض مرضاً شديداً يودي بحياته

— ماذا تقولين ؟ يا ويح امه ... أيمرض فيموت .. !

— نعم كما شرحت

— اواه ! ان صوابي يكاد يطير . لو تعلمين يا اختي كم قد نصحته بل كم قد تضرعت اليه طالبة ان يتزوج لرثيت لحالي .. لقد أشاب رأسي عناد لطيف وأمات آمالي واني لأخشى ان ادفن قبل ان افرح في عرسه !

— ما لنا ولهذا الكلام الآن . الموقف خطير جداً فاما العرس واما القبر . ليعلم لطيف ذلك حق العلم !

***

لم تفاتح الام ابنها بامر العرافة لانها كانت تعلم طباعه واخلاقه التي هيهات ان يؤثر عليها مثل هذه المؤثرات وكانت تشعر في صدرها بجمرات لاذعة تحمل اليها الاوجاع منذرة بموت عزيزها ووحيدها لطيف فما كانت تجد طريقاً تهديها الى سلامة فلذة كبدها . تعيسة « ام لطيف » لقد انتفى عن عينيها الكرى وحل في قلبها الهم الشديد

وعاد لطيف ذات مساء فالفى امه تجهش بالبكاء فبادرها قائلاً :

— اماه ما هذا يا اماه اتبكين ؟

فلم تنبس الام بجواب فاعاد عليها السؤال فقالت :

— نعم ابكي حظي الاسود .. لانني ساموت بعد ايام

— اماه .. ما هذه الوساوس التي لا يصح الاعتداد بها

— ليس ما اقول وساوس انما حقائق ملموسة لقد حلمت امس انك اذا لم تتزوج هذا الشهر فسيحل بنا الدمار

فحاول لطيف ان يضحك ولكنه امتلك نفسه خشية ان يجرح قلب امه التي كان يحبها حباً جماً وقد هال الابن اصرار امه ومخاوفها فخشي عليها عاقبة هذه الوساوس المريعة فقال :

— ولكن ماذا تبغين مني ؟

— يجب ان نعقد خطبتك

— ومن هي هذه الخطيبة المباركة ؟ !

فتنحنحت الام تبدو عليها علائم الاستبشار وقالت :

— الخطيبة حاضرة ياولدي وهي لابنة الكبرى لعائلة « دانه » ، ألم تسمع باسمها

— اجل انني سمعت باسم العائلة ولكنني لا اعرف شيئاً عن الابنة

— وماذا تريد ان تعرف عنها حرسك الله ؟

— ما يجب ان اعرفه في مثل هذا المقام . اريد ان اعرف شيئاً عن اخلاقها وطباعها وشيئاً عن حسنها و ...

— دعنا من هذا الكلام يا لطيف واعتمد على امك في مثل هذه المواقف

فبدت علائم التذمر على وجه لطيف وقال :

— ولكن الزوجة لي انا وليست لسواى . فلا بد من مواجهتها وممارسة اخلاقها زمناً ولو قصيراً ومن ثم ننظر في أمر الخطبة

وما انتهى لطيف من كلامه الاخير الا واخذت الام تلطم رأسها وخدها وتصرخ باعلى صوتها :

— يا ويحي ... يا ويحي ... ومن يسمح لك بهذه الامور ؟ او تظن يا جاهل ان الابنة صندوق فرجة تتمتع بالنظر اليها ثم ترى رأيك فيما بعد

– فاستشاط الابن غيظا وقال :

– وانت اتظنين ان البحث عن زوجة للحياة كالبحث عن حذاء للقدم ، ان لعبت به يد البلى بعناه للاسكافي بابخس الاثمان ، انك لفي ضلال يا ام !

وكانت الام تكثر من اللطم كلما فاه ولدها بكلمة الى ان قالت :

– ساموت .. ساموت .. انه لا يعتمد على اختيار امه ولا على نصيحة « ام غايب » !

– ومن هي « ام غايب » ؟ سأل لطيف حانقاً مستغرباً

– لا ادري لا ادري !

ولم تك « ام غايب » سوى تلك العرافة الشمطاء التي ما برحت توالي زياراتها لام لطيف حتى اقنعتها بحمل ابنها على الزواج من ابنة عائلة دانة

***

اصبح البيت في مأتم دائم !

يترك لطيف امه صباحاً وهي باكية شاكية ويعود مساء وهي صاخبة ناحبة وظلت الحال على ما ذكرنا زهاء الشهر حتى كره الابن حياته وآثر السفر ولكنه كان يشعر بعطف على امه العجوز كلما ابصر دموعها تنساب على خدها المتجعد وكلما القى نظرة على شعرها الرمادي او سمع تأوهاتها تحت جنح الليل البهيم !

وبعد الليا والتي عقدت خطبته على ابنة « دانة » وهو لم ير لها وجها ولم يسمع منها صوتاً . وكان امله عظيماً بسعادة مقبلة يرتشف كؤوسها من اخلاق شريكة حياته وجمالها الفتان وكان يعلل نفسه باحلام ذهبية ملأت فكره ليلاً ونهاراً

— رباه .. متى اراها . . ؟ متى اقبلها . . ؟ ان قلبي يخفق لذكراها خفوقاً سريعاً !

وما هي ايام حتى عقد زواجهما . فاصبحا تحت سقف واحد يرى احدهما الآخر وجهاً لوجه وأنعم لطيف نظره فيمن ستشاطره الحياة فاذا بها فطساء الانف ، صفراء الوجه ، ضخمة الجثة ، واسعة الشدقين ، اذا حدثته ظن انه يسمع نهيق حمار وان سمع قهقهتها خالها نعيب بومة تنذر بالشؤم !

واذ كان لطيف يفكر فيما يجب عليه ان يعمله بعد هذه الفضيحة أيخنق زوجته ام يخنق امه ام يخنق نفسه دخلت عليه امه مستبشرة متهللة وهي تقول :

تعال يا ولدي تعال يا حشاشة كبدي . . تعال قبلني فلقد انقذتك من الموت بهذا الزواج السعيد . . . . ! يا لها من زوجة

طفلتان

كانت العائلة ، وهي من العائلات المتوسطة الحال القليلة اموالها الكثيرة مزاياها ، مستبشرةً بمقدم العيد ، باسمة في وجهه ابتسامة الطمأنينة والرضى لانها ترى فيه سراً قدسياً يطهر النفس مما علق بها من ادران الايام ويفرج عنها همومها وآلامها .

لذلك كان الاجتماع في بهو الدار ناطقاً بما يشعر به افراد هذه العائلة من سعود ، وما يحلمون به من آمال الحب العائلي .

اما الاب فكانت تلوح عليه ، بين الآونة والاخرى ، أمارات ألم يقطب لها جبينه العريض ، ثم لا يلبث ان يهش ضاحكاً في وجه ابنته التي لم تتجاوز الثمانية اعوام. انه كان وهو في هذه الليلة المباركة التي يرتشف فيها كؤوس السعادة العائلية ، يبعث فكره ، اراد ام لم يرد ، مستعرضاً صور الحياة التي يحياها ابناء وطنه ، بما في هذه الحياة من بؤس وشقاوة ، فيخفق قلبه المًا ويوشك ان يجتاحه اليأس بتياره ، ولكنه اذ يقع نظره على زوجته وابويه وطفلته الصغيرة ، يرتد فرحاً مستبشراً . قالت الزوجة :

— نظيمة هيا قبلي يد « بابا » واشكريه على هدايا العيد هيا

فتقدمت الصبية بدلال لتقبل يده ، فاحتملها هذا الى صدره وطبع على خدها قبلة ابوية وهو يقول :

ـ ما احلاك يا بنيتي

فاجابت البنت :

ـ اشكرك يا باباعلى هذا الثوب واشكرك على هذا الخاتم الذهبي الجميل

ـ لكنك اجمل منه

ـ بابا ان هذا الحذاء الاسود قد اعجب ماما كثيراً ، اعجبها اكثر من الحذاء الثاني الاحمر .

وكان معظم الحديث دائراً بين الاسرة حول نظيمة ، ومداعباتها الشائقة ولا غرابة فقد كانت كالفراشة الجميلة ، تتنقل بين أيديهم فتملؤ عيونهم نوراً وقلوبهم بشراً

وفيما اصحابنا على ما ذكرنا اذ طرق مسامعهم ، صوت ضعيف ، اشبه بما يبعثه المجهش بالبكاء . سمعوا بكاء متقطعاً ضعيفاً طرق سمعهم فجأة ، ثم هرولة اقدام خفيفة تبتعد عن الغرفة

***

كانت الخادمة منزوية في غرفتها ، ترتب بعض لوازمها عند ما دخلت عليها ابنتها الصغيرة باقدام متعثرة ووجه اصفر

ـ انك تبكين يا بنيتي فما السبب ؟ ولم تكد الابنة تسمع صوت امها الحنون حتى ضاعفت بكاءها مرسلة دموعها غزيرة

ـ ماذا يؤلمك يا بنيتي هند ؟ تكلمي

ـ لقد كنت ... اماه ... وراء باب الغرفة ... غرفة سيدي ...

فرأيت الهدايا ... وسمعتهم ... يخاطبون نظيمة ...

وهنا اختنق صوتها بالعبرات

— اسكتي يا بنيتي اسكتي . ان الله كريم رؤوف ... نـامي الآن وسأشتري لك غدا هدايا تعجبك

فاهت الام الخادمة بهذه الكلمات تلطيفاً لالم ابنتها التي عضها الفقر والبؤس اذ رأت نفسها في هذا العيد محرومة ممن يحنو عليها ويعاملها معاملة الاب الكريم

وظلت البنت تبكي ساعة من الزمن حتى تغلب عليها الرقاد فحملهـا الى عالم الاحلام

***

وفي صباح اليوم التالي ، اشرقت شمس العيد زاهية ، لامعة فاستيقظت ابنة الخادمة من نومها وابتسامة التعاسة تلوح على محياها فوقع نظرها على امها تشير لها باصبعها الى حوائج وضعت على طاولة قريبة .

تطلعت البنت فملكتها الدهشة . ما هذا الذي تراه امامها وهل هي في يقظة ام لم تزل نائمة .

انها ترى ثوب نظيمة ابنة سيدتها وحذاءها وهي تجد قرب فراشهـا كيساً مملوءً دراهم وخاتماً جميلا وهي واجدة كعكا وحلويات

— ماما ! ما هذايا ماما ؟ ولمن يخص ؟

— انه يخصك يا بنيتي

فقفزت الصبية من فراشها طرباً واخذت تصفق تارة وترفع الثوب بيدها طوراً ثم تأخذ الخاتم فتقبله راكضة الى امها

— اماه احقيقة ما تقولين ؟

— اسرعي للغسل فاليوم يوم عيد وعليك بالنظافة هيا اسرعي

— ونظيمة ابنة سيدتي ماذا ستلبس؟

— قلت لك اسرعي فان نظيمة قد ارتدت ملابسها قبلك ولا تنسي الدعاء لها بالحياة الطويلة واظهار الحب عندما تريد محادثتك في شيء .. هيا اذهبي.

بعد ساعة كانت ابنة الخادمة ، ترفل جذلا بأثوابها الجديدة حائمة في الحارة لاعبة مبتهجة ، تبتسم لكل من تلقاه وتضحك بدون سبب وكانت كلما خلت بنفسها ادنت اصبعها من فمها وقبلت الخاتم بشوق شديد

وفي الشرفة المطلة على الطريق حيث كانت تلعب هند ابنة الخادمة ، وقفت نظيمة من وراء السجف ، تنظر الى الزقاق متطلعة اليها وكانت كلما بدر لها حركة غير اعتيادية تسرع الى امها ضاحكة قائلة :

— تعالي تعالي انظريها يا ماما فهي مسرورة بهذا اليوم

فتقبلها امها وتجيبها : — وانت الست مسرورة لسرورها؟

— نعم انا مسرورة وانت يا ماما ؟

— انا مسرورة اكثر منكما .. كذلك بابا مسرور

— فتسكت الابنة قليلا كانها تجهد دماغها الصغير في التفكير وتقول بنبرة رقيقة : — ومتى يجيء العيد الآخر يا ماما ؟!

ج ....

حمل الي البريد الداخلي ذات يوم الرسال التالية :

بغداد في ٩ آب ١٩٢٨

سيدي الاديب انور افندي شاؤل

من انا التي اكتب اليك هذه الرسالة؟

سؤال يصعب ان تجد له جواباً عندي ، وماذا تهمك معرفة اسمي ؟ انني اكتفي فيما سا كتب الآن بان أصف لك زوايا النفس وخباياها عارضةً على انظارك لوحة من الواح البشرية المتألمة التي سئمت القيد الحديدي المغلولة به يداها وعنقها !

أطالع ، بين وقت لآخر ، قصصك . فشكراً لك على شعورك الحي نحو الجنس اللطيف في هذه الربوع .. ولكن آه يا سيدي انني آسفة لان أقول ان نبراتك هذه التي تبغي من ورائها تسيطر الحياة الاجتماعية الراقية اخشى عليها ان تضيع ضياع القطرة في البحر او الهمسة في القفر ...

اشكو اليك ما اعانيه من آلام الحياة عسى ان توحي اليك هذه الشكوى عناصر قصة تخدم بها اخوانك ابناء هذه البلاد ، اشكو اليك يا سيدي مسترشدةً بك في ظلمات هذا المجتمع

اتعدني انك لا تنشر للملاء رسالتي هذه ؟ لئن تعدني بذلك اكن

لك من الشاكرات ... ولكن ماذا يهمني نشر هذه الرسالة وعدمه .. ان الناس سوف لا يعرفون من انا وان اطلع عليها الوف القراء ...

ما أشقى هذه الحياة التي نحياها في العائلة . ان ابي يغار علي حتى من النسيم اذا هب علي والطائر اذا دنا مني .. كذلك شقيقي . !

خرجت مساء ذات يوم للنزهة متحجبة وقد حدث لسوء حظي ان الهواء رفع دون ارادة مني برقعي فبان وجهي لبعض المارة . وصادف مرور ابي اذ ذاك فظن انني تعمدت هذا .. اتدري ماذا كان عقابي لدى رجوعي الى الدار ؟ آه انني ارتعد كلما تذكرت ذلك المساء ! انه امسك بغدائر شعري ولفها على كفه وادار بي الفضاء ثم رماني على الارض أثن انيناً !

واني لأتذكر من قوله دقيقتذاك ما يلي :

« أتتبرجين في الشوارع يا عاهرة ... ؟ »

آه ما أشد تعاستي وما اكثر ألمي ...

سيدي اني امنح عشر سنوات من عمري على ان اتمكن من مناقشة والدي وشقيقي الحساب كم اتمنى أن اقول لهذا الوالد الذي لا يحمل ذرة من شعور الابوة :

« ... لقد طغيت و بغيت يا هذا ... لقد ظلمتني ظلماً شديداً ... اتخاف على عفتي أن تدنسها الانظار وانت تأتي بكل عمل تاباه العفة ويمجه الشرف .. كم مرة لحظتك ايها الاب ... تلاحق الخادمة مغازلةً .. كم مرة ابصرتك ـ وانت تخال نفسك في مأمن ـ تقبل خدها القذر ... »

آه ان قلبي يضطرب في حنايا ضلوعي .. انني ابكي الآن وانا اكتب لك رسالتي هذه .. الى متى يا سيدي احيا هذه الحياة الذليلة المهانة التي لا تحياها ادنى الحيوانات !

ولو لا اني اطالع خلسة بعض الصحف والكتب التي اجدها في البيت لما عرفت عن هذا العالم شيئاً .. فارشدني الى سواء السبيل ... أأرضى بالسلاسل ينوء تحت ثقلها ظهري . أم ..

انني أخشى على حياتي .. فقد اخبرتني جدتي العجوز ان ابنة عم لي قطعت اربا اربا عندما كان لي من العمر سنة واحدة .. وقيل ان القاتل لم يكن سوى شقيقها الاكبر ، اساء الظن فيها وهي بريئة طاهرة .. آه ان فرائصي ترتعد

ولكنني لا أخفي عنك يا سيدي انني ، احياناً ، لا أرهب ظلم هؤلاء الظالمين ولا أخشى اعتداءهم اما هذه الشجاعة التي تثور في نفسي بين آونة واخرى فهي منبعثة من شعوري بالطهر والعفاف .. انني عفيفة فلم الخوف ؟ انني طاهرة الذيل فعلام الرهبة ؟ ليفعلوا ما شاؤوا .. ليضربوا .. ليعذبوا .. ليذبحوا .. فانا شريفة النفس ...

اكشف لك عن بواطن قلبي متألمة باكية بكاء الاطفال فاعذر حماقتي ان كنت حمقاء .. انني ابكي لاني سئمت حياة الذل .. انني ابكي لانني اشتقت الى نور الحرية المشروعة ، نور الحياة الحقيقية ! ما هذه الخرقة السوداء البالية التي أضعها على وجهي اذا ما خرجت من الدار ، هذه الخرقة

الكثيفة التي تمنع عني النور والهواء ؟ انني أريد تمزيقها فماذا تقول ؟ أشر علي أأفعل ذلك أم أنتظر . . . ؟

انني أريد أن أعاتب والدي عتاباً مراً اذا ما رأيته يحتقر أمي و يغازل الخادمة الحقيرة فماذا تقول ؟

انني أريد أن أزجر شقيقي اذا ما جيء به الى الدار من خمارات « الميدان » مغمياً عليه دعارةً وسكراً فماذا ترى ؟

انني أريد أن أنشر نداء أدعو فيه بنات جنسي للبحث عن الحرية المعبودة ولو كلفهن ذلك النفس والنفيس فماذا تشير . . ؟

أجبني يا سيدي القصصي فعسى ان تقطع دموعي بجواب شاف

المخلصة

ج . . .

الجواب : ايتها الآنسة ! اذا كان لك سلاح وافر من الارادة والعفة والفهم فمزقي حجابك وعاتبي والدك وازجري شقيقك وانشري النداء ولك مني ارق تحيةٍ وأزكى سلام !

آمال ممزقة..!

كان صديقي (ر...) ينعم نظره في كتاب صغير الحجم مقلباً صفحاته المكتوبة بخط جميل عندما دنوت اليه بخطوات خفيفة وقلت له واضعاً كفي على كتفه :

— الآن علمت سر مجيئك مساء كل يوم الى هذا المكان المنعزل ومكوثك فيه ساعة تكتب خلالها ما تكتب في هذا الكتاب الذي تحاول اخفاءه

فحدجني الصديق بنظرة تائهة وقال :

— أو يهمك كثيراً اكتشاف هذا السر يا صديقي . ؟

— لا شك في ذلك . وحسبك ان تعلم انه ليس أحب الى الصديق المخلص من الاطلاع على أسرار صديقه . فناولني هذه المجموعة لالقي عليها نظرة طائر

ولحظت انه متردد فاردفت :

لا اظنك ضعيف الاعتقاد باخلاصي .. فاجاب بنبرة المطمئن

— حاشا .. ولكنني اعتقد ان قراءة ما بيدي لا تهمك كثيراً فهي مذكرات خاصة امدتني بها مشاهد الحياة

وساد سكون قصير كاني بصاحبي ، اثناءه ، قد تذكر انني قبل بضعة

اشهر قد اطلعته ، عن طيبة خاطر ، على صفحات مطوية من مذكراتي فابتسم ابتسامة ارتياح ورضى وقدم الي الكتيب قائلا :

— اليكه .. فليس بين خفايا قلبينا ستار فاصل

النهار يوشك أن يلفظ انفاسه الاخيرة ونحن جالسان قرب ناعورة قديمة لا تبعد كثيراً عن باب بغداد الشرقي ، هناك في معزل عن الناس اعتدنا النزهة مساء ملقين عن النفس متاعب النهار ، متمتعين بمنظر الشمس وهي تلم اطرافها النيرة ملوحة للتوديع بمنديلها النوراني

تناولت الكتاب من صديقي واول شيء فيه لفت نظري عنوانه الذي كتب بخط فني :

« امال ممزقة . . ! »

وقلبت بادىء بدء صفحات الكتيب ملقياً على فصوله نظرة سريعة ، كما هو شأني كلما تناولت كتاباً جديداً ، فالفيت بين يدي مذكرات عن شؤون شتى كتبت في اوقات مختلفة تتراوح بين عام ١٩٢٠ وبين ١٩٢٨

اشغل صديقي نفسه بالصفير الذي كان يجيده فقرأت فيما قرأت :

« ... اليوم حصلت على هذه القصاصة الصفراء التي يسمونها « الشهادة » فشعرت بمثل ما يشعر به الظامىء اروى عطشه الماء الزلال ... ساطرق كل باب في هذا المجتمع متطلباً مركزاً يليق بي .. ان بيدي شهادة تخول لي حق التفوق على غيري من المزاحمين .. كثيراً ما أرى نفسي سعيداً بمن يحيط بي من الاصدقاء العديدين الذين قضيت معهم سنوات الدراسة . !

ان كلاً منهم سيكون لي معوانا في الحياة ولا شك ان المجتمع سيفتح لي صدره الواسع ليضم امالي واحلامي فيغذيها وينميها »

ثم قلبت بضع صفحات فقرأت :

« .. ما كان ليخطر ببالي انني سأتجشم مثل هذه المتاعب للحصول على مثل هذه الوظيفة العادية في هذه الدائرة الرسمية .. لقد كنت مصراً على عدم اتخاذ اية واسطة للحصول عليها ولكن اصراري لم يكن في محله .. ذلك ما اتضح لي بعد ان وثقت من ان الذكاء والتفوق قلما يفيدان الناشيء في هذا المعترك الهائل .. شكراً لسعادة « البك » فقد كان خير نصير لي في نيل وظيفتي الراهنة .. ارى ذاتي مدفوعاً الى شكر « البك » وشكر رئيس دائرتي ومعاونيه ولكن كما يدفع الفلاح الفقير والعامل المعوز الى تقديم الضريبة التي تكاد تتكسر عظامه تحت ثقلها الرهيب ! »

وكان ضوء النهار يسمح لي بان اطالع اكثر من هذا فقرأت في مكان آخر :

« كثيراً ما احاول تعويد نفسي على بعض ما يسمونه « المجاملات الاجتماعية » ولكنني لا استطيع الى ذلك سبيلا ولعمري ليست هذه المجاملات سوى النفاق مجملة الوانه . ! الواجب يقضي علي ان ابسم لمن لا ارتاح الى رؤيته واصافح من انا واثق من حسده اياي وربما اقتضى لي ان الاطف شخصاً شرس الاخلاق ساقط النفس . فتباً لهذا الواجب »

« ارى انني في حياة ضيقة ! تشرق الشمس فالى اين الذهاب ؟ الى

الدائرة .. ويكون العصر فمن اين القدوم ؟ من الدائرة .. وها ان السنين تمر على تعييني وانا لم ازل اتناول هذا الراتب الزهيد الذي لا يكاد يسد مطاليب حياتي . ان اولئك الاصدقاء الذين كنت ارجوهم في مثل هذا اليوم العصيب لتخفيف الم الحياة قد تفرق شملهم وما عدت اتمكن من مواجهتهم الا على قارعات الطرق عرضاً . كل مشغول بهواه : هذا ما زال يبحث عن وظيفة فلا يجدها وذاك قدر له ان يسافر الى اوربة للدرس على نفقة ابيه الغني وذلك أشغلته التجارة والزوجة عن كلما بقي في الوجود »

وقلبت صفحات خمساً فوقع نظري على الاسطر الاخيرة من الصحيفة حيث قرأت : « ... على جبينه وتسمرت عيناه غيظاً وصرخ باعلى صوته : قلت لك اننا تعساء ليس لنا سوى القشور اما المتلذذون باللباب فهم ، وهم وحدهم وليس سواهم . بعداً للذين يحسبون هؤلاء القوم يحبون سواد عيوننا ويريدون خيرنا واسعادنا او سمت بقوي تكرم على ضعيف بقسط من قوته . ان الشقة بين الغرب والشرق ستبقى واسعة الى الابد . أفهمت ؟ »

وقلبت قارئاً :

« لقد ابدلوا رئيس دائرتنا والظاهر ان الاخير صورة من صور الارستقراطية المتصلبة التي يتوهم الناس انها قد انقرضت في عصرنا هذا عصر العلم والمدنية .. ارى ان لهذا الرئيس دماغاً متكلساً .. دخلت عليه امس في شأن اداري فاذا بالعجرفة تقطر من وجهه .. لقد ازعجني التطلع

اليه ولكن لم يكن لي مناص من ذلك . الا ما احمقه .. فهو يظن ان موظفي الدائرة باسرهم عبيد اشتراهم له ابوه . واني لعلى ثقة من انه لو كان باستطاعته التنفيذ لما تقاعد عن اصدار امر يوجب على مأموريه تقبيل قدميه صباح مساء .. »

ثم قلبت صفحتين فقرأت :

« في دائرتنا موظف بدأ خدماته منذ ست سنوات وهو نشيط خلوق صدر أمس أمر ديواني بالاستغناء عن خدماته لسبب تافه فغادر الدائرة والدمع في مآقيه ... واليوم عين الرئيس آخر يقوم مقامه وقد سمعت بعضهم يهمس ان الموظف الجديد ما هو الا ابن عمة رئيس الدائرة المحترم ... آه انني اتلوع حرقة واسىً .. لقد سئمت هذا التفرج على هذه المآسي .. لقد مللت هذه الحياة الجافة الا من الدمع .. دمع الالم الكامن ... لو كنت واثقاً انهم يلبون طلبي لتنازلت عن وظيفتي لهذا الموظف المطرود ظلماً . . »

وقرأت في الصفحة التالية :

« نصحني احدهم بان اشتغل في احدى الصحف كيما يتسنى لي ان احلق في فضاء من الحياة واسع ولقد فكرت مليًا في ذلك فالفيتني اهلاً لان اكون محرراً في احدى الصحف ولكن من بوسعه ان يضمن لي الحرية اللازمة والمجال الكافي للتعبير عما يختلج في نفسي من مختلف الشعور والآراء ... هنا ايضاً باب مغلق وأمل ممزق ! »

وصلت في مطالعتي السريعة الى هنا فاذا بضياء النهار يوشك ان يضحمل واذا بصاحبي يمد يده فقلت له :

– دقيقة اخرى فقط

والقيت نظرة على الصحيفة الاخيرة مما خط في هذا الكتاب فقرأت :

« ما زلت ابحث عن الاخلاص والحب عن الحماسة والادراك . . . ما زلت اطمح الى العثور على نفس تفهم اسرار نفسي انا .. والى كف حديدية تمزق حجاب البؤس عن هذا الفضاء المظلم .. ما زلت أحن الى ما لا استطيع التعبير عنه .. الى ما لم تعلمني المدرسة اسمه ... الى شيء يجعل الحياة « سعيدة ، راقية ، حرة » بما في السعادة والرقي والحرية من قدس وسمو ولكن ابحاثي ما زالت تذهب سدى ! »

هنا ناولت الصديق كتابه بالرغم مني وانا اقول له بنبرة كئيبة :

– انك تعس يا صاح !

فقال للفور برزانة وتهكم :

– وهل انت سعيد .. ؟

فما كان مني الا ان اطرقت قليلاً ثم نظرت اليه نظرة حائرة قرأ فيها اوضح جواب ..!

قلب فارغ

طال الانتظار على « نبيلة » فنهضت تقطع خدرها ذهاباً وايابا بخطى مضطربة اي اضطراب . وكانت كلما جزع قلبها وسئم فكرها اشرفت من نافذتها على الطريق متطلعة من خلف الستار بنظرات زائغة تنم عما وراءها من آلام الهوى وتباريح الشوق .

ودقت الساعة السادسة والنصف وقلت حركة المارين في شارع « الحيدرخانة » فارتمت نبيلة في مقعد عريض ، بعد ان القت على الشارع نظرة اخيرة مشبعة بالحزن ، وسرعان ما اخذت تحادث نفسها .

— لقد ابطأت « ام غايب » فما الذي اخرها عن المجيء ؟ ايمكن ان يكون هو .. هو الذي اعبده عبادة دائمة ، صادقة .. ربما يكون اخرها عنده ريثما يحبر لي جواباً على رسالتي الاخيرة بعد ان اذاقني من صنوف التعذيب والصد ، ما مزق به احشائي . اجل ربما يكون ذلك

واطلقت لافكارها العنان .. فتصورت انها تقرؤ كتاب محبوبها « نديم » بما فيه من اشعار الهيام وعبارات الاشواق ومصطلحات العبادة وتصورت نديماً يقبل عليها باسماً ابتسامة الرضى والشغف ، فتمد اليه ذراعيها فيقابلها بالمثل فيتعانقان مغمضي العيون ، مطبقي الشفاه بعضها على بعض ، ملتصقي الصدرين وقلباهما يدقان نشيد الحياة الخالدة حياة الزوجية

التي تقطر حباً وسعادة !

— اعبدك يا نديم ..!

— اعبدك يا نبيلة ..!

وفيما الانسة غارقة في بحر من هذه التصورات البعيدة المدى اذ دخلت عليها خادمتها العجوز « ام غايب » قائلة بصوت منخفض :

— بشراك يا عزيزتي فقد اجاب على رسالتك هذه المرة .

ولا تسل كيف كان هنا موقف نبيلة وعلى اية صورة اختطفت الرسالة من ام غايب وفضتها ولكن أكان بامكانها قراءتها وهي على ما ذكرنا من الانفعال النفسي الذي قلما يتسنى للنفس البشرية ان تمتلك ، تحت تأثيره ، قياد مشاعرها .!

لم تتمكن من فهم الرسالة الا بعد ان اعادتها ثلاث مرات متتاليات اذ ذاك شعرت بطعنة الخيبة واحست بالصدمة الهائلة التي ارتجت لها مفاصلها وخارت منها قواها .. تعيسة لقد اغمي عليها !

***

كان « نديم » يفض رسالة حملها اليه البريد . عندما دخل عليه صديقه الحميم « نجيب » فرحب به هاشاً باشاً واوماً اليه بالجلوس على مقربة منه .

ولم يكن سواهما في غرفة نديم المنسق آثاثها تنسيقاً يدل على ذوق سليم فخاطب الشاب صديقه الزائر :

— أتسمح لي بدقيقتين اطالع فيهما هذه الرسالة ؟

— بأكثر من دقيقتين اسمح لك وعسى ان تحمل لك هذه الرسالة خيراً

فابتسم نديم بسمة جافة كلها معان وشرع يطالع .

في ٢٦ - ١٢ - ١٩٢٦

نديمي الظالم !

أهكذا تكون قسوة الرجل الذي يأنس ضعفاً من المرأة ؟ سامحك الله يا نديم فقد طعنت قلبي طعنة نجلاء بعد ان احطت مشاعري بسور من حبك الذي سد علي منافذ الحياة .

وكنت على امل ان تجيب دقات هذا القلب المخلص الذي لم يركع لجمال غير جمالك مكفكفاً هذه الدموع المنسكبة عند بزوغ الشمس وتحت جنح الظلام ولكن ما اقساك وما اشرس طباعك .

ست عشرة رسالة ، بين كبيرة وصغيرة حبرت لك فلم تجبني على واحدة منها بكلمة واحدة . وعندما اجبتني على رسالتي السابعة عشرة قلت لي ايها الظالم : « ان قلبي فارغ من الحب الذي تأملينه وسيبقى فارغاً الى الابد فابحثي لك عن قلب سواه ! »

اتقابلني يا نديم بمثل هذه العجرفة وانا التي طالما تحدثت العائلات عن مكانتي في الاخلاق والجمال ، وطالما تمنى الفتيان ان اعطف عليهم بنظرة من نظراتي الساحرة كما يقولون .

لا اظن ان في بغداد فتاة سواي نكبت بمثل نكبتي بك هذه النكبة التي اذلت نفسي ، وصفعت عزتي صفعة هائلة . الا لعنت تلك الساعة

التي زرتنا فيها صحبة شقيقي ولعن ذلك اليوم الذي ارتسمت فيه صورتك على صفحات افكاري

سأحاول ان انسى ذكراك واسحق حبك يا نديم ولكن ثق انني قبل ان اقدم على تجرع هذه الدواء الاخير اقول لك للمرة الاخيرة : « ان قلبي ما زال مملوءاً من حبك »

لك الى الابد

ن . ب .

فرغ نديم من تلاوة الرسالة فتطلع الى رفيقه « نجيب » وضحك ضحكة خشنة اثارت حب الاستطلاع في نفس صاحبه فسأله :

— اراك تضحك فماذا قرأت ؟

— ماذا قرأت ؟ لم اقرأ كلمة وحقك !

— وكيف ؟ انها رسالة مزدحمة بالسطور !

— مسكين انت يا صديقي ، الظاهر ان بصرك يخدعك لان هذه الرسالة فارغة « فروغ قلبي » ويكفيك دليلاً على صحة دعواي انني امزقها الان قطعاً قطعاً والقيها في سلة المهملات . !

وهكذا كان . !

استغرب نجيب امر نديم فألح عليه بان يطلعه على جلية الخبر وبعد حوار قصير قال نديم :

— تريد ان تعلم مني بعض الشيء .. ليكن !

ليست الرسالة التي مزقتها سوى رسالة حب عميق كتبتها آنسة جميلة في الثانية والعشرين من سنيها ، اسمها .. اسمها لعمري انني نسيت اسمها

— او لا تستحق حبك هذه الانسة يا نديم ؟

— قد تستحق حبي وقد تكون اهلاً لحب اسمى وازكى ولكن ذلك الجدول الذي تتجمع فيه قطرات الحب فتروي قلبي ، قد جف جفافاً اصبح قلبي من جرائه فارغاً .. فارغاً . !

— وعليه !

— وعليه ليس باستطاعتي ان احب

— أهازل انت ام جاد ؟

— واذا حاولت ان احب فسيكون حبي فارغاً

— انني استغرب حديثك يا نديم

— واذا كان حبي فارغاً فسوف لا اتمكن من ملء قلوب الغير به

— افصح قليلاً ناشدتك الله

— اما اذا طلبت ممتنعاً وحاولت ملء قلب فتاة به فسيكون شأني اذ ذاك شأن من يحاول ان يملأ دلواً بلا قعر ..

وهنا ضحك نديم عالياً ورشق صاحبه بنظرات غريبة مما جعل الاخير يظهر استياءه محاولاً الانصراف غير ان نديماً حال دون ما اراد قائلا :

— اذن انت تريد ان تعلم من امر حبي اكثر من هذا فاليك ما تريد : لقد سنحت لي الفرص قبل هذا ان احب في اوقات مختلفة حباً طاهراً

لاتدنسه الاغراض ولا تتلاعب به الشهوات فلم يكن نصيبي سوى الفشل الممض

ابصرت مرة في احدى العائلات فتاة حسناء فجرى بيننا حديث فاذا بها متعلمة مهذبة وما لبثت ان شعرت بميل نحوها قابلتني بمثله غير انه لم يمض على تعارفنا شهران الا وحامت حولنا انظار اقربائها ، واخذوا يترصدوننا ترصد الفلكيين نجوم السماء . وعلى اثر ذلك خبرتني فتاتي ان اخاها هددها بانه سيقتلها اذا احس منها بميل نحوي . وكان شقيقها هذا من اقرب اصدقائي الذين يحترمونني

وتلاشى كل شيء عن الفكر ، ومرت اشهر جمعتني بعدها الصدف بغادة طبعت على قلبي بطابع جمالها فحاولت التقرب اليها بعد ان انست من وداعتها وشغفها بمكارم اخلاقي ما شجعني على ذلك ولم يمر ايام حتى شرع اهلها واهلي يتهامسون وباذنها سمعت البعض يتقولون عنها بانها « خليعة » وباذني سمعت البعض يتقولون عني بانني « خداع » احاول صيد الغانيات ، ومن ثم انقطع حبل الوداد ونسينا كل شيء !

وحدث ان تعارفت — ولا تسل كيف كان ذلك — بفتاة من الطبقة العليا التي يقيس الناس علوها بعلو اكياس الذهب ، فاذا بها فتاة تسيل رقة ودلالاً واذا باخلاقها مثال يحتذى به ، وصارحتني بحبها وصارحتها بحبي وعندما اطلعت امها على هذا الحب عطفت عليه لسذاجة طباعها وعطفها على ابنتها ، اما والدها فقد ارغى وازبد وهددها بانواع الاهوال اذا لم ترتدع عن غيها وتطرد ذكرى (هذا الموظف اللعين) يعنيني انا بكلامه !

كان نديم يتكلم بحرقة قلب ، فيصغي اليه صاحبه بملء جوارحه واذ وصل الى هنا قال :

— عشرين مرة فتحت قلبي لتنفذه اشعة الحب وفي العشرين مرة اطفأت ايدي الاعتبارات الاجتماعية السخيفة ذلك النور الالهي الذي يمنح الحياة قوة ، نشاطاً وسعادة — نور الحب !

— ان حديثك لغريب يا نديم

قال الصديق ذلك بنبرة خافتة فحدجه نديم بنظرة طويلة نارية وقال مستفهماً :

— والان ايها الصديق الذي كشفت له عن دخائل قلبي وماضي شبابي الذابل الحب أتعجب اذا قلت لك انني ملت الحب بحيث لن استطيعه . أتعجب بعد هذا اذا قلت لك ان قلبي الذي تسمع دقاته هو قلب فارغ .. فارغ .. !

وخز الضمير

قالت سعاد لقرينها صفاء :

— اراك كئيباً تطيل النظر الى الفضاء فهل من حادث اشاطرك آلامه ؟

فاجابها الزوج بنبرة خافتة جافة : — لا شيء . . !

ودعته مساء الى مائدة العشاء قائلة : — لقد احضر الطعام يا صفاء فهيا

فاجابها بضجر : — لست جائعاً !

ودقت الساعة العاشرة افرنجية ليلاً فدعته الى الرقاد فاجابها :

— سأرقد الليلة في غرفتي الخصوصية . . !

وكان صفاء مكمد الوجه ، متجعد الجبين ، تطالع زوجته في انظاره المضطربة قلقاً شديداً واشجانا مبرحة ! اي مصاب يا ترى صير بشاشته عبوساً ، ولطافته خشونة ، وراحته مللا ؟ انه منذ ايام معدودة اصبح غريب الاطوار لا يقر قراره ، ولا يأنس الى محادثة شريكة حياته تلك الاحاديث الطويلة التي ملؤها الحلاوة والرقة ، احاديث السعادة والحب !

— ايمكن ان صفاء مل عشرتي في هذا الوقت القصير . ؟ كلا ان ذلك لن يكون . .

وأوت الزوجة الى فراشها قلقة تتقاذفها الهواجس والتأملات ، تحاول ان تكتشف سر آلام زوجها فلا تجد الى مرادها سبيلا .

* * *

قام صفاء الى غرفته ، متعثراً ، متألماً ، شارد الفكر ، فاغلق عليه الباب وتناول كتاباً تاريخياً يطالع فصوله آملا ان يطرد الافكار السوداء التي تصطدم في دماغه ، والاحزان المبرحة التي تنتاب قلبه ، ولكن ما ابعد الشقة بينه وبين مراده . فقد كان يمعن النظر في اسطر الكتاب فلا يرى الا بياضاً ، فيحدق بوسعة عينيه فلا يرى الا سواداً ، فيدني الكتاب بعنف ثم يبعده ثم يدنيه ، فلا يستطيع قراءة حرف واحد !

واذ اعيته الحيلة القى الكتاب بعيداً .

— آه ويل لي ! ما اشقاني بهذه النيران المتضرمة في احشائي ! الا يتسنى لهذا الفكر المضطرب ان ينسى الماضي وما فيه من اسفاف وانتهاك ؟

لقد كنت جباناً رعديداً .. لقد غدرت بمن ائتمنني على اعز شيء لديه ووصمت شرفه! آه انني نادم على تلك الفعلة الشنعاء ، انني اضرع اليك يا رب ان تطرد عني هذه الهواجس .. هذه الخيالات المرعبة .

وهنا جثا صفاء على ركبتيه مغمضاً عينيه فلاحت له اظفار حادة طويلة تمتد اليه تريد ان تنشب في جلده . واحس بابر نارية توخزه في صدره ، في قلبه وفي ثدييه ، و بنار حامية اندلع لهيبها الى وجهه اذ ذاك يريد ان يلتهمه التهاما .

تمدد صفاء على فراشه وغطى كل جسده باللحاف ، واغمض عينيه ، وابتسم ابتسامة جافة يحاول ان يطرد بها تصوراته الرهيبة ولكن الاظفار ما زالت ممتدة اليه ، والابر توخزه وخزا والنار تحاول التهامه . فنفض عنه اللحاف وانتصب ثانية مدمدماً :

— آه اني اشعر بقحف دماغي يتكسر وبؤبؤي عيني يضطربان وبالدم يقف في عروقي .. يجري ببطء .. بسرعة .. آه اني اتوجع ..

وكلما حاول صفاء ان يطرد هذه التصورات ارتسمت امام عينيه صور ذلك الدور الشنيع الذي مثله ؛ فترتبك مشاعره وتهيج آلامه ؛ وتسلك به تصوراته مسلكا وعراً مقفراً مخيفاً !

٥٥٥

طبع الشيخ العجوز قبلة مضطربة على وجنة حفيدته قائلا :

— كفكفي دموعك يا بنيتي فلا بد لهذه الحال من زوال !

— آه ... يا ابتاه .. لقد اصبحت الدار جهنم ... انه دائماً مضطرب البال شارد النظر .. كم حسرة هربت من صدره بدون ارادته وكم دمعة تدحرجت على خده بدون شعوره !

— انه لامر غريب يا عزيزتي سعاد .. أو لم تتمكني من الاطلاع على سر آلامه ؟ او لم تسمعي منه ما ينير لك ظلمات هذه الاطوار ؟

— لقد سمعته ، ابتاه ، ليلة اول أمس يتكلم في نومه كلاماً متقطعاً مبهما

— او لم تفهمي منه شيئا ؟ !.. فاجابت سعاد والدمع يترقرق في عينيها ؟

— انني لم افهم سوى هذه الجمل المتقطعة « انني نـادم..!» « انني أثيم..! » « خنت صديقي ..!» « ما اتعسني ..!»

وهنا خنقتها العبرات فضمها جدها الى صدره يحاول ان يخفف لواعجها بحنانه الابوي .. ! !

الامبراطور انور

لا اظن ان احداً من القراء طالع قصة « الامبراطور انور » او سمع عنها شيئاً رغم انها من ابدع القصص وألذها . والحق انها خسارة اية خسارة ان يظل الناس جاهلين وقائع هذه القصة الغريبة ذات الالوان الزاهية .

و « الامبراطور انور » صاحب الصولجان والملك من هو يا ترى ؟ ومتى عاش ؟ واين عاش ؟ أعلى ارضنا هذه ام في المريخ ام غيرهما من هذه الاجرام السماوية المهيبة ؟ « الامبراطور انور » الذي تسمعون به للمرة الاولى ألم يزل في قيد الحياة ؟

« الامبراطور انور » صاحب الملك الواسع والامبراطورية المترامية الاطراف ما زال حياً يرزق بامكان كل انسان ان يواجهه ويحادثه ملياً وبلا كلفة . و « الامبراطور انور » صاحب الصولجان الالماسي والعرش الذهبي والتاج اللؤلؤي ما هو الا انا . ! اجل انا الذي احدثكم اليوم عن سيرتي عندما كنت امبراطوراً مهاب الجانب ، مسموع الكلمة !

ومتى كنت امبراطوراً عالمياً ؟ وكيف اصبحت امبراطوراً يا ترى ؟ ذلك ما لا اتذكره بالضبط اما مدة الحكم الامبراطوري التي قضيتها على العرش فهي اربع وعشرون ساعة فقط

اربع وعشرون ساعة لا اكثر ولا اقل ولا اظن ذلك وقتاً يسيراً. ومهما يكن من الماضي فلا شك عندي انكم لا يهمكم البحث والاستفسار والتنقيب عن ظروف امبراطوريتي وقيامها وسقوطها ما دام الامبراطور انور قد اصبح اليوم شخصاً عادياً مثلكم لا يمتاز عليكم بشيء الا ببعض صفات الادب اهمها « فراغ الجيب » والحمد لله !!

***

كان ذلك في ضحى احد الايام !

وكانت الشمس ضاحكةً ، تداعب اشعتها عرشي الذهبي فيضطرب على صفحاته النور فتبدو الوانه للناظرين متموجة تموج لجج البحر ، فجلست بكبر وخيلاء أتطلع ، والتاج المهيب على رأسي ، الى الحاشية الملتفة حولي بخشوع وسكون التفاف النجوم البراقة حول القمر المنير ! وكانت الساحة واسعةً واسعةً لا يحدها الطرف وقد شمخت هنا وهناك اعمدة رخامية جبارة ارتكزت عليها اروقة جميلة منظمة اتقن تنظيم فكنت تخال ، وانت ترسل الطرف الى تلك الاعمدة ، انك تبصر مردة من الجن تحمل على اكتافها زوارق مستطيلة من الذهب والفضة والعاج !

وتقدم الي رئيس الحجاب ببزته الارجوانية المتضاربة الالوان فانحنى كثيراً وقال :

— الشعراء يا مولاي يسترحمون المثول بين ايديكم لالقاء قصائد مديحهم

فاجبته : — ليتقدموا الينا !

فتقدم رهط كبير يقارب المائتين من الشعراء واصطفوا امـام عرشي بكل تجلة واحترام فقلت بعد ان تفرست في وجوههم :

— ليتقدم الينا اطولكم باعاً في قرض الشعر ، وأبلغكم تعبيراً

فانبرى شخص قصير القامة ، متجعد الوجه ، اسمر اللون فقبل الارض بين يدي واستأذن بالانشاد فقلت له :

— هات ما عندك

فاخذ ينشد بصوت عال :

— ملك يحف به الجلال كانه * هبط الانام من السماء ملاكا

فاستشطت غيضاً لهذا المطلع السخيف وقاطعته :

— اخرس يا هذا فقد مجحنا هذا الضرب من المديح الفارغ والاطناب التافه . اعندك شيء من الشعر يتغلغل الى اعماق القلب ؟

ولما رأيت الشاعر ما كثاً واجماً صحت به :

— اليك عني ايها المشعوذ !

فمضى ورفاقه يتعثر بعضهم باذيال البعض

وادرت وجهي مخاطباً رئيس الحجاب :

— هل امرت باحضار المنافقين المتلونين تلون الحرباء ؟

فاجابني منحنياً :

— اجل يا مولاي وها هم ينتظرون ما تحكمون به

وهنا تقدم عدد لا يحصى من الرجال ، بينهم فئة من النساء ، تبدو على

وجوههم امارات الخبث والرياء فدنا الي واحد منهم ربع القوام ، ضخم الجثة ، عالي البطن ، كبير الرأس مستديره فقبل الارض بين يدي وقال باكياً :

ـ مولاي اعترف واصحابي بنفاقنا ورياثنا فاعف عنا هذه المرة ! مولاي ارحم دموعنا المترقرقة ؟

فصحت به زاجراً :

ـ صه يا احمق ، لقد ملأتم المملكة فساداً ، اوشك ان يبيد الامبراطورية هيا خذوا هؤلاء المنافقين وشغلوهم في تعبيد الطريق بين بغداد والشام ثم افرجوا عنهم .

فولوا صاخبين مولولين بصوت خافت

ـ الينا بالبخلاء القذرين

فتقدم عدد كبير من الناس ، صفر وجوههم ، متعثرة اقدامهم ، يكاد البخل يقطر من جباههم فاومأت الى احدهم بالاقتراب فدنا هالعاً فازعاً فسألته :

ـ كم من المال تملك يداك ؟

فاجابني بعد تردد :

ـ عشرة ملايين « رفدية » (١) ذهباً فقط

فتطلعت الى سحنته الدالة على الفقر مستغرباً وسألته :

ـ وكم مرة قدر لك ان تعمل عملاً خيرياً انسانياً ؟

---

(١) اسم عملية عراقية مشتقة من رافدين ابتكرها المؤلف وهي تعادل الليرة الحالية

وحدجته بنظرة حادة لكي يصدقني الجواب فقال مرتبكا :

– مرة .. لا . لا يا مولاي .. مرتين فقط !

– وكيف ؟

– مرةً اعطيت « بغدتين » [1] لاحد المتسولين واخرى اعطيت فيها اربع بغدات لعجوز فقيرة !

فصحت به بصوت ارتجت له جوانب المحفل :

– تباً لك من بخيل رقيع !! اغرب عن وجهي وليتقدم الينا غيرك ان كان اوفر حظاً في عمل الخير .. ليتقدم حالاً ..

فوجم البخلاء مطرقين لا يبدون ولا يعيدون فامرت رئيس الحجاب قائلاً :

– خذ هؤلاء الناس الى واد ومر الجند بان يشغلوهم اربع عشرة ساعة كل يوم في صهر ذهبهم وفضتهم وصنعها توابيت لموتى الفقراء تستخدمها مجاناً « الجمعية المقدسة » التي الفت برآسة العالم العلامة سليمان حوكو عبود لتكفين الموتى ودفنهم في بغداد !

فسيق الجمع كأن على رؤوسهم الطير

ثم احضر بين يدي جماعات اثر جماعات منهم ارباب المراقص يتقدمهم صاحب مرقص امبريال الذي يسمح لبعض الجنود البريطانيين باثارة العربدات على الاهلين ، واربات الخمارات والمسارح ، وجماعة الراقصات الوطنيات

---

(١) البغدة اسم عملة عراقية اشتقها المؤلف من بغداد وهي تعادل الفلس في يومنا هذا

والاجنبيات ، وأحضر امامي عدد غفير من الموظفين الذين يسيئون الاستعمال في وظائفهم ويقصرون في تأدية واجباتهم ثم احضر امامي مؤسسو النوادي والجمعيات المنقرضة واصحاب الصحف الهوجاء التي ماتت في مهدها فاصدرت على كل منهم حكماً متناسباً مع ضرورة الحال .

وكان العصر فاصدرت الاوامر بانهاء الجلسة ، ونزلت عن العرش بخيلاء وازدهاء يحفني السراة والعظماء وامراء الجيش وزعماء الدولة وفيما انا احادث كبير المرافقين اذ تقدم الي رئيس الحجاب واستأذن بالكلام فاذنت :

— مولاي ، جماعة صغيرة ، لهم ظلامة يسترحمون رفعها الى اعتابكم يا مولاي . افتأمرون ؟

فوقفت مكاني وقلت بارتياح :

— لا بأس فليتقدموا .. العدل اساس الملك

وما هي لحظة حتى أبصرت عدداً من الناس ، علمت لاول وهلة ، انهم ارباب الصحف ، عرفت منهم شخصيا «غنام» و « حسون » و« شكر » و « بطي » و «البدري» و « السمعاني » و « زعزور » وغيرهم لا اتذكرهم فاومأت الى احدهم واظنه « حسون » واذنت له بعرض ما لديه واصحابه فقبل الارض بين يدي وقال :

— مولاي يا صاحب الحول والطول ! لقد بح صوتنا نحن معشر الصحفيين ، وانشقت حناجرنا في طلب الاصلاحات ، حباً بتقدم اجزاء

الامبراطورية كافة ، لكن صرخاتنا ، وواحرقة قلباه ، تضيع غالباً ضياع الهمسة في الصحراء !! نطالب اولي الشأن يامولاي بمؤازرة الصحافة واعفائها من بعض الرسوم واجراء التسهيلات لنا في مهنتنا .. ولكن واحسرتاه ! من يسمع ومن يقرأ . !

وكان الصحفي يتكلم من اعماق قلبه ، مما جعل لكلماته اوقع تأثير في نفسي ، وكان الى جانبي ناظر الداخلية فامرته قائلاً :

— ليكن لهم ما يريدون على ان يكونوا ابداً صادقين مخلصين عاملين . انهم خطباء الامة وقادة افكارها . اجل ليكن لهم ما يريدون

فانحنى ناظر الداخلية قائلاً :

— امرك مطاع يا مولاي !

وسار الموكب الامبراطوري بكل ابهة وجلال

ولكن الى اين كان مسيره ؟ أألى القصر تحوطه الراحة والسعادة ام الى البحر يكفنه زبد الامواج ؟ !!

يقدم للطبع قريباً

الحصاد الثاني

مجموعة قصص افرنجية

لاشهر قصصيي العالم

ترجمة

انور شاؤل

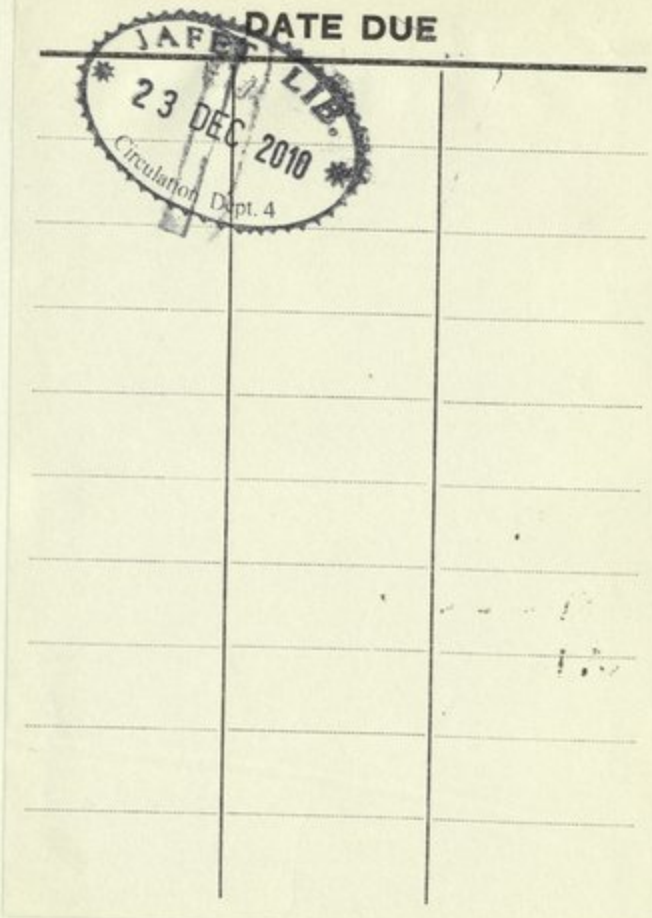
DATE DUE
JAFER LIB.
23 DEC 2010
Circulation Dept. 4

A.U.B.
شاول ،النور
الحصاد الاول
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038183

892.78
Sh542hsA
v.1